للإمام الغزالي



شرح ودراسة وتحقيق
الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان
عن مخطوطتين نفيستين

مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار

عالم الكتب

مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار

للإمام الغزالي

شرح ودراسة وتحقيق
الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان
عن مخطوطتين نفيستين

عالم الكتب





بيروت - المزرعة بناية الإيمان - الطابق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً : نابعلبكي - تلكس : ٢٣٣٩٠

الطبعة الأولى
١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

الإهداء

إلى
مَنْ كانَ أستاذاً لي مُنذ الصِّغر . .
وله فيما حقَّقتُ الكثير . .
كثير في تصميمه على الكثير . .
إلى
العلامة الجليل المرحوم الشيخ عبد الكريم الرفاعي
رحمه الله تعالى وأسكنه فردوسه الأعلى
عُربوناً بالفضلِ
ووفاءً بالجميلِ

عبد العزيز

قالوا في التصوّف وأئمّته

* وَالصُّوفيُّون قَدْ يكونـونَ مِنْ أجَـلِّ الصـدِّيقينَ بحسـب زمانِهم، فَهُـم مِنْ أكْمَلِ صِدِّيقي زمانِهِم، والصدِّيق في العصرِ الأُولِ أكمل مِنهم، والصدِّيقونَ درجاتٌ وأنواعٌ.

ولأجْلِ ما يقعُ في كثيرٍ منهم مِنَ الاجْتهادِ، والتنازُعِ فيهِ، تنازَعَ النَّاسُ في طريقِهم:

فطائفةٌ ذمَّت الصُّوفية والتَصوُّفَ، وقالوا: إنهم مُبتدِعون خارجونَ عنِ السُّنَّةِ.

وطائفةٌ غالَتْ فيهم، وادَّعوا أنَّهم أفضلَ الخَلْقِ وأكملهم بعدَ الأنبياءِ.

وكِلا طرَفَيْ هذِهِ الأمور ذميمٌ، والصَّوابُ أنَّهم مجتهدونَ في طاعةِ اللَّهِ، كما اجتهدَ غيرُهم مِنْ أهلِ طـاعةِ اللَّهِ، ففيهم السَّـابقُ المقرَّبُ بحسْبِ اجتهادِهِ، وفيهم المقتصِدُ الَّذي هُوَ مِنْ أهلِ اليمينِ، وفي كلِّ الصِّنفَيْنِ مَنْ قَدْ يجتهدُ فيُخطيء، وفيهم مَنْ يُذنِبُ فيتوبُ، أو لا يتوب[1] اهـ.

* روي أن أُناساً أقبلوا على السـري السقطي (ت: ٢٤٥ هـ)، يسألونـه عن محبة الله، فالتفتَ إلى ابن اخته الجنيد (ت: ٢٦٧ هـ) وأمره أن يرفع كُمَّ

---

(١) ابن تيمية في «الفتاوى الكبرى» (ص١٧).

خاله ليَرى ما تحته، وفعل الجُنيد ما أمره خاله فرأى ذراعه ناحلاً مهزولاً حتى يكاد يلتصق جلده بعظمه، إذْ ذاك قال السري:

يا بني المحبَّة أدناها ما رأيت

ثمَّ أنشد:

وَلَـمّـا ذَكَـرْتُ الـحُـبَّ قـالَـتْ كَـذَبْـتَـنـي
أَلَـسْـتُ أرىٰ مِـنْـكَ الـعِـظَامَ كَـوَاسِـيـا
ومـا الْـحُـبُّ حـتَّى يَـلْصَقُ الْـجِـلْدُ بـالْـحَشَـا
وَتَـخْـرَسَ حـتَّـى لا تُـجـيـبَ الـمـنـاديـا
وَتَـهْـزَلَ حَـتَّـى لا يُـبْـقـي لَـكَ الـهـوىٰ
سِـوىٰ مُـقْـلَـةً تَـبْـكـي بـهـا وتُـنـاديـا[1]

---

(١) انظر: القاشاني في «اصطلاحات صوفية» (ص ٥ مقدمة).

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ
فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ
يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ
زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ
لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ
شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

سُورَةُ النُّورِ

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله نحمده، ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلاَّ الله، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ﷺ.

وبعد:

فإنَّ جلسات كثيرة، ودروس علمٍ لا يعلم عددها إلا الله تعالى تلك التي استمعت فيها بشغف عن حياة الإمام الغزالي، وأقواله، وأفعاله، وكراماته، وما يمكن أن أطبقَه من كلِّ ذلك في حياتي. فمنذ نعومة أظفاري قبل عشرين سنة وحتى اليوم، سمعت أكثرها في مساجد دمشق العريقة، ومن أفواه علمائها العالِمين، في حلقات علم حَفَّتْها الملائكة، وغَشِيَتْهَا الرحمة، وعمَّتها السكينة. وعبقت بنسائم روحية من أولئك الذين كانت أخلاقهم من أخلاق القرآن الكريم، وأفعالهم من أفعال المصطفى ﷺ، وطريقتهم على سنن الصحابة والتَّابعين ومن تبعهم بإحسان.

* * *

ومرة بعد مرة أصبحت على محبة مخلصة لهذا الإمام العظيم، وعلى صلة روحية صافية، أتلهَّف سماع أيِّ شيءٍ عنه، أو قراءة بعضٍ من كتبه، أو رؤيته في المنام، ولكن لكل نبأٍ مستقر، وكل شيء في حينه يأتي.

* * *

وجاءت الفرصة على قدر، وذلك في أحد الدروس شبه العامَّة في مسجد منطقتنا، أثناء إعطاء الشيخ درسه، إذ رفع أحد الجالسين يده وسأله عن حديث رسول الله ﷺ «وهل يكبّ الناس على مناخرهم يوم القيامة إلاَّ حصائد ألسنتهم»(1)؟ حينها نظر الشيخ نحوي قائلاً: قم يا عبد العزيز وآئتني بكتاب «إحياء علوم الدين» من مكتبتي في أدنى رف على اليمين. وبسرعة عفوية خرجت إلى باحة المسجد ميمماً شطر غرفته وفتحت الباب بهدوء ودخلتها على وجل، وتطلعت إلى الرف الثاني فوجدت الكتاب في أربع مجلدات. حملتها وأتيت بها الشيخ أسعى بين الجالسين إلى أن وصلتُ إليه، فقال: جزاك الله خيراً، هذا كثير، يكفيني ربع المهلكات. وانتقى منها جُزءاً، فتحه على موضوعٍ معينٍ. ثم قال لي: اجلس، واقرأ بصوتٍ عالٍ يسمعك الجميع، وجلست ممسكاً بالكتاب، خجلاً، فرحاً، مرتبكاً، وبصوتٍ متهدِّج، قرأتُ، وأنصتَ الجميع، وتَابعتُ القراءة، فاشتدَّ صوتي، وظهرت نبراتي، فإذا بي أقرأ كلاماً يؤثر في القلوب، ويستقرُّ في العقول، جاعلاً من الموعظة غذاءً روحياً لذيذاً يتمنى السَّامع لو بقي دائماً، وما زلتُ أقرأ حتى أشار لي الشيخ بالتوقف.

وعدتُ يومها إلى مضجعي راجياً الله أن يرزقني علم الغزالي وموعظته، وأن أقتني كلَّ كتبه.

* * *

ومرت بعد ذلك سنوات اقتنيت بعدها بعض أهم كتبه كـ «إحياء علوم الدين» و«المنقذ من الضلال» و«أيها الولد» و«ميزان العمل» وعكفت على قراءتها، ودرسها وتدريسها على الناس في المساجد، فهالني في «الإحياء» عبارات توحي بوحدة الوجود، وأحاديث كثيرة لا أصل لها، نُسبت إلى الرسول ﷺ، فضلاً عن الضعيف جداً، والضعيف، فتركت الكتاب إلى غيره، منقطعاً عن قراءته.

غير أني اضطررت بعد ذلك بزمن إلى مطالعة كتابه «تهافت الفلاسفة» متتبعاً فصوله برغبة وإعجاب، وتفهُّمٍ وعمق، إذ وجدت فيه ما يروي غلَّة الظامىء لهذا القسم من العلوم، فزاد منه زادي، واسترجعت ذاكرتي في كتبه التي قرأتها فاستغربت تناقضه في بعض العبارات، فأضمرت درس ذلك في يوم ما، ثم حصل لي نسخة من كتابه «المنخول» بتحقيق الأخ العزيز زميل الجوار في السَّكن والمصلَّى: الدكتور حسن هيتو، فراود ذهني إذ ذاك أنني لم أعِ تماماً عبارات الغزالي وإلا فمن الصعب قبول فكرة هذا الانحراف الخطير من الإمام الغزالي نحو وحدة الوجود أو الانتصار لها.

* * *

ومرَّ من ثَمَّ وقت لا بأس به حصلت خلاله على صورة عن مخطوطة «أيها الولد» خلال تحقيقي كتاب «الأخلاق» للراغب الأصفهاني. ووجدت تشابهاً فيها مع «ميزان العمل» للغزالي وطريقته في درس النفس الإنسانية ونزعاتها، فعدتُ حينئذ إلى كتب الغزالي بوعي أكبر وعلم أوسع، وذهن أكثر تفتُّحاً. وعملت أيضاً بتصحيح بعض أجزاء كتاب «إحياء علوم الدين» طبعتها «دار إقرأ» على شكل كتب يسهل حملها وقراءتها. فعدتُ بذلك إلى جوِّ الغزالي ومفاهيمه ومواعظه فوجدت فيها أشياء جديدة كأني لم أرَها من قبل، وما زلتُ أبحث عن كتبه وما كُتبَ عنه، حتى علمتُ أن من أهمها هذا الكتاب مشكاة الأنوار فبحثت عنه فلم أجده في المكتبات، فيممت شطر المكتبات العامة، وأثناء بحثي في مكتبة الـ AUB وجدت نسختين: مطبوعة ومخطوطة، فقرأت المطبوعة، فرأيتها تشع روحاً وعلماً، وفوجئت بتركها هكذا دون تحقيق علمي يبحث في ثناياها عن خباياها، كما فوجئت بآراء الدكتور المرحوم أبي العلا عفيفي حول الكتاب والمؤلف وإعراضه تماماً عن كل وسائل التحقيق سوى مقابلة المخطوطات والتقديم لها، واختيار أقدم نسخة مع كثرة أخطائها بشكل يغيرٌ المعنى، ويُشكِل الهدف من العبارة. لذلك اتخذت المخطوطة أصلاً أحققه

* * *

وفي خضم تحقيق الكتاب والعودة إلى الكثير من الكتب والمراجع والمصادر، خرجتُ بنتيجة سبقني بها الدكتور عبد الأمير الأعسم صاحب كتاب «الفيلسوف الغزالي» وهي قوله في مقدمة كتابه:

«لم يعدْ البحث في الغزالي، مفكراً وفيلسوفاً، وفقيهاً، ومتكلماً، ومتصوِّفاً، فيه طراوة الجدَّة والأصالة، منذ عهد بعيد، ذلك لأن البحث الأكاديمي قد استوفى ما لهذا العملاق من حقوق عليه» ا هـ.

غير أني أرى أن الكثير من مؤلفاته لم تلقَ الرعاية الكافية، وجلّ الدراسات كانت عنه وحَوْل كتبه، لا في صميم موضوعاتها، فهي بحاجة أن تُلقى بين أيدي الناس على اختلاف مستوياتهم العلمية حتى تتأصل أفكاره الخالصة من شوائب الانحراف والتطرف في أذهان الناس وقلوبهم. لذلك سأتبع هذا الكتاب بإذن الله بكتابه «ميزان العمل».

لذلك جرَّدتُ القلم، وشمَّرت عن ساعد الجد، ودرست المخطوطة فوجدتها هدية من الله عز وجل لي، بوضوحها وقِدمها وصحَّتها وبدأت العمل. وهكذا بعد ستة أشهرٍ متواصلة أجد نفسي أقدِّم لنفسي وللقراء خلاصة الفلسفة الإسلامية في التصوف والإشراق الروحي. ممهِّداً بعدة مقدمات، شارحاً كل ما يحتاج إلى شرح راجياً من الله عز وجل أن يُعمَّ الفائدة من هذا الكتاب وأمثاله ويجعلنا من الذين وصفهم بقوله:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحزَنُونَ﴾.

بيروت — الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان

البَـابُ الأَوَّل

التعريف بالإمام الغزالي

- مولده وبدء حياته العلمية
- رحلاته
- وفاته
- مؤلفاته
- أقوال بعض العلماء فيه
- الإمام الغزالي أحد المجدِّدين

التعريف بالمؤلف

مولده وبدء حياته العلمية:

ولد المؤلف في مدينة طوس[1] من خراسان[2] سنة (٤٥٠ هـ) من أبٍ يعمل بالغزل، ويبيعه في دكانه يكسب به قوت يومه أوَّلاً بأوَّل، ثم يُمضي بقية يومه مع الفقهاء والعلماء والمتعلمين من المتصوفة، يجالسهم، ويخدمهم حتى صار فقيهاً مشهوراً في محلته، وكان أكثر ما يدعو الله عز وجلَّ أن يعقبه ولداً يتفقه بالدين والتصوف وعلوم الفلسفة ويصير من العلماء المشهورين. وقد استجاب الله دعوته فرزقه بولدين.

ولكنَّ الوفاة حضرته وما زال الولدان دون الحلم، فأوصى بهما إلى أحد أصدقائه من المتصوفة من أهل الخير، وأعطاه كل ما لديه من مال قائلاً:

«ما كنتُ لأتأسَّف على شيءٍ من الدّنيا، كأسفي على الحظ، وكيف لم يكن لي من معلمين. . . ، وأحبُّ منك أن تُتمَّ لهما ما عليهما، ولا عليك ألا يقع لهما شيء بعد تعلمهما»[3].

---

(١) طوس: مدينة في خراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ تحوي أكثر من ألف قرية، فُتحت أيام الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبها دُفن علي الرضا، وهارون الرشيد (معجم البلدان ٤/٤٩).

(٢) خراسان: بلاد واسعة، أوَّلها: مما يلي العراق، وآخرها: أوَّل الهند، وحدود غزنة، وسجستان، وكرمان بلاد البلوش، وتحوي بلاداً كثيرة ومعروفة (معجم البلدان ٢/٣٥٠ ـ ٣٥٤).

(٣) أحمد الرفاعي عن المقريزي ص ٥٨.

أما اسم الغزالي فقد جاءه: إمَّا نسبةً إلى موطن عائلته الأصلي «قرية غزالة» وهي قرية صغيرة من قرى طوس. أو: من حرفة أبيه في غزل الصوف وبيعه.

وحين مات أبوه أقبل الرجل المتصوف على إرشاد الولدين وتعليمهما حتى نفذ مال أبيهما القليل، وصَعُب عليه حمل الأمانة أكثر لقلّة ذات يده. فقال لهما: «إني قد أنفقت عليكما ما كان لكما، وأنا رجل من أهل الفقر والتجريد ليس لي مال فأواسيكما به، وأصلح ما أرى لكما أن تلجآ إلى مدرسة، فإنَّكما من طلبة العلم فيحصل لكما قوت يعينكما على وقتكما» فالتحقا بإحدى المدارس الوقفية الدينية، وانطلق الغزالي من هنالك يترقى على درجات العلوم حتى صار حجة الإسلام وزادت مؤلفاته عن الـ ٣٠٠ مؤلفاً.

رحلاته:

١ ـ أولى رحلاته إلى مدينة جرجان حيث درس لدى الشيخ أبي القاسم الاسماعيلي، وحين عودته بعد سنوات استولى على كتبه جماعة من اللصوص، ثم أعادها فحفظها خلال ثلاث سنوات خوفاً من ضياعها مرة ثانية.

٢ ـ رحلته الثانية كانت إلى نيسابور[1] حيث اتصل بإمام الحرمين الإمام الجويني[2] رئيس المدرسة النظامية، وذلك سنة ٤٧٣ هـ فأخذ منه، ودرس المنطق والفلسفة وأصولها عليه إلى أن توفي الإمام الجويني رحمه الله وذلك بعد خمس سنوات. فترك الغزالي نيسابور ليتابع رحلته العلمية إلى بغداد.

٣ ـ رحلته الثالثة كانت إلى بغداد حيث قصد نظام الملك، ولا بد أنه عاش

(١) تقع على مسافة ٤٩ ميلاً غربي طوس.
(٢) توفي سنة (٤٧٨ هـ ـ ١٠٨٥ م).

هنالك حياة مليئة بالعلم والتعليم والجدل والمناقشة وتداول الأفكار حتى ولاه نظام الملك سنة ٤٨٤ هـ منصب رئيس المدرسة النظامية وهي تعتبر أكبـر جامعة في ذلك العصر.

٤ ـ رحلته الرابعة كانت في نهاية عام ٤٨٨ هـ وبدء العام ٤٨٩ وذلك حين اتسعت شهرته وعلومه وكثر ماله، وأصبح في بحبوحة من العيش، إذ أصيب فجأة بمرض جافى معه الطعام[1] فغادر بغداد سرًّاً مدعياً الحج. ويقول هو عن نفسه في ذلك:

«باعثها ومحركها طلب الجاه، وانتشار الصيت» ثم يقول: «فتيقنت أني على شفا جرفٍ هار، وإني قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال، فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار اصمم العزم على الخروج من بغداد، ومفارقة تلك الأحوال يوماً، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه»، ثم يقول: «فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها إلى المقام، ومنادي الإيمان، ينادي: الرحيل، الرحيل فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل. . . ، فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد».

وأخيراً رحل إلى الشام ووصلها في شهر صفر ٤٨٩ هـ على الأرجح. وفي الشام وجد الزهاد والمتصوفة والهدوء والسُّكن وحياة الرقي الد ر ني بأجلى صورها ويقول في ذلك:

«وأقمت فيهـا قريبـاً من سنتـين لا شغـل لي إلا العـزلـة، والخلوة، والرياضة، والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق، وتصفية القلب، لذكر الله تعالى كما حصلته من علم الصوفية».

٥ ـ رحلته الخامسة كانت إلى الحج عن طريق القدس حيث بقي زمناً أكمل فيه البعد عن موطنه عشر سنين متواصلة.

---

(١) انظره مفصلاً في كتاب«المنقذ من الضلال»للمؤلف.

٦ ـ رحلته السادسة كانت سنة ٤٩٩ هـ حيث عاد إلى نيسابور، فدرّس فيها كما أراد دون سُمعة، ودون رياء، ودون طلب جاه، بل لوجه الله تعالى.

وفاته:

وفي عام ٥٠٣ هـ عاد حجة الإسلام إلى بلده طوس، متابعاً حياته العملية والعلمية والفكرية ببناء مدرسة بجوار داره للفقهاء، وداراً للصوفية، وتولى التدريس فيهما واعظاً ومرشداً إلى أن توفي رحمه الله صبيحة يوم الاثنين في ١٤ جمادى الثانية سنة ٥٠٥ هـ ـ كانون أول ١١١١ م.

وقد نقل الإمام أبو الفرج ابن الجوزي تفاصيل ذلك اليوم مروياً عن أخيه أحمد بقوله[١]:

«لما كان يوم الاثنين وقت الصبح توضأ أخي أبو حامد، وصلى وقال: عليَّ بالكفن، فأخذه، وقبله، ووضعه على عينيه، وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مدَّ رجليه واستقبل القبلة ومات قبل الإسفار» رحمه الله. وجعل مأوانا وإياه الجنة.

دفن الإمام حجة الإسلام الغزالي في الطابران[٢].

---

(١) كتابه «الثبات عند الممات».
(٢) وهي إحدى أربع مدن في خراسان (معجم البلدان ٤/٤٩).

مؤلفاته

مؤلفات الإمام الغزالي:

من المُجمع عليه بين العلماء قديماً وحديثاً أن الإمام الغزالي متعدد في شخصيته ومؤلفاته، ففي كل مرة يكتب تجده وراء كلماته تتقمصه ويتقمصها، فهو فقيه بحق، وفيلسوف بحق، ومتكلم بحق، ومتصوِّف بحق، ومفسر بحق[1] مبرِّز في كلٍّ واحد من هذه الاختصاصات وكأنه لا يُتقن سواه.

كما أنه من المكثرين في عالم الكتاب إذ تعدَّت مؤلفاته الأربعمائة مصنف ما بين عدة مجلدات كـ (إحياء علوم الدين) وكتب عادية كـ (المنخول) ورسائل صغيرة كـ (بداية الهداية) مما حدا زويمر القول: «محمد بن عبد الله [صلى الله عليه وسلم] أمير الأنبياء، ومحمد بن إدريس [الإمام الشافعي] أمير الإيمان، ومحمد بن محمد بن حامد الغزالي أمير الكتَّاب»[2] ولكني أميل إلى القول أن ابن تيمية، وابن الجوزي، وابن عربي، والسيوطي قد سبقوه من ناحية كثرة التصانيف، كما لا أستطيع القول أن كل كتب الغزالي تحوي مادة علمية دسمة أو غير دسمة فالكثير مما في كتبه مكرور بأساليب متباينـة، تعتمد الـوعظ والإرشاد والتعليم عن طريق التبسيط أو التدرج وضرب الأمثلة المتعددة.

وقد ذكر أكثر من عالم غالب مؤلفات الغزالي فمن ذلك: الواسطي في

---

(١) انظر ما كتبه (الاعسم. الفيلسوف الغزالي ٥٠ وما بعدها) عن هذا الموضوع.
(٢) عبد الكريم عثمان، سيرة الغزالي ص ٣٥.

كتابه: «الطبقات العلية»[1] تحت عنوان: فصلٌ في ذكر غالب مصنَّفاته:

١ ـ البسيط.

٢ ـ الوسيط.

٣ ـ الوجيز.

٤ ـ الخلاصة.

٥ ـ إحياء علوم الدين.

٦ ـ المستصفى.

٧ ـ المنخول في أصول الفقه.

٨ ـ اللباب.

٩ ـ بداية الهداية.

١٠ ـ منهاج العابدين.

١١ ـ كتاب الفردوس.

١٢ ـ كيمياء السعادة.

١٣ ـ المآخذ.

١٤ ـ التحصين.

١٥ ـ الاقتصاد في الاعتقاد.

١٦ ـ إلجام العوام.

١٧ ـ كتاب المستظهري.

١٨ ـ الرد على ابن شريح في مسألة الطلاق.

١٩ ـ الفتاوى.

٢٠ ـ الرد على الباطنية.

٢١ ـ مقاصد الفلاسفة.

٢٢ ـ تهافت الفلاسفة.

---

(١) رسالة صغيرة حققها الدكتور عبد الأمير الأعسم وارتأيت الأخذ عنها لإحيائها للقراءة والمراجعة.

٢٣ ـ جواهر القرآن.

٢٤ ـ الغاية القصوى.

٢٥ ـ فضائح الإمامية.

٢٦ ـ [غور الدور، هذا هو الردّ على ابن شريح].

٢٧ ـ محكّ النظر.

٢٨ ـ معيار العلم.

٢٩ ـ ميزان العمل.

٣٠ ـ الصراط المستقيم.

٣١ ـ مدارك العقول.

٣٢ ـ شفاء العليل.

٣٣ ـ أساس القياس.

٣٤ ـ كتاب في مسألة كل مجتهد مصيب [صنّفه بدمشق].

٣٥ ـ حقيقة القرآن.

٣٦ ـ والمنتحل في الجدل.

٣٧ ـ شرح أسماء الله الحسنى.

٣٨ ـ مشكاة الأنوار.

٣٩ ـ المنقذ من الضلال.

٤٠ ـ كتاب الأربعين.

٤١ ـ كتاب أسرار معاملات الدين.

٤٢ ـ كتاب بدائع صنع الله.

٤٣ ـ كتاب مراقي الزُّلَف.

٤٤ ـ كتاب المبين عن دقائق علوم الدين.

٤٥ ـ كتاب التوحيد.

٤٦ ـ كتاب النوادر.

٤٧ ـ كتاب خصائص المقربين.

٤٨ ـ كتاب الكنز والعدّة والأنيس في الوحدة.
٤٩ ـ كتاب أخلاق الأبرار.
٥٠ ـ كتاب التفرقة بين الإيمان والزندقة.
٥١ ـ كتاب قانون الرسول صلى الله عليه وسلم.
٥٢ ـ كتاب القربة إلى الله.
٥٣ ـ كتاب النصوح في المواعظ.
٥٤ ـ كتاب تلبيس إبليس.
٥٥ ـ كتاب سر العالمين وكشف ما في الدارين.
٥٦ ـ كتاب المعراج.
٥٧ ـ كتاب نصائح السلاطين.
٥٨ ـ كتاب حلى الأولياء.
٥٩ ـ كتاب قانون التأويل.
٦٠ ـ كتاب منطق الطير.
٦١ ـ كتاب الوسائل إلى علم الوسائل.
٦٢ ـ كتاب الإملاء.
٦٣ ـ كتاب حجّة الحقّ في توجيه الأسئلة على الأئمة.
٦٤ ـ كتاب تنبيه الغافلين.
٦٥ ـ كتاب أسرار الأنوار الإلهية.
٦٦ ـ كتاب الإشراف على مطالع الإنصاف.
٦٧ ـ كتاب المسائل البغدادية.
٦٨ ـ كتاب مآخذ الأدلة.
٦٩ ـ كتاب لباب النظر.
٧٠ ـ كتاب مسائل الخلاف.
٧١ ـ كتاب المسترشدي.
٧٢ ـ كتاب المبادىء والغايات.

٧٣ ـ كتاب قواصم الباطنية.
٧٤ ـ كتاب تعليق الأصول.
٧٥ ـ كتاب مقصد الخلاف.
٧٦ ـ كتاب نهاية الوصول في مسائل الأصول.
٧٧ ـ كتاب إفحام أهل البدع.
٧٨ ـ كتاب تهذيب الأصول.
٧٩ ـ كتاب الجداول المرقومة.
٨٠ ـ كتاب الأجوبة.
٨١ ـ كتاب التعليق الكبير.
٨٢ ـ كتاب المفردات.
٨٣ ـ كتاب في قتل المسلم بالذمي.
٨٤ ـ كتاب الإختصار.
٨٥ ـ كتاب المآخذ [وهو الغاية القصوى في البحث].
٨٦ ـ كتاب النفخ والتسوية.
٨٧ ـ كتاب كشف علوم الآخرة.
٨٨ ـ كتاب الفتاوى في المذاهب.
٨٩ ـ كتاب خزائن الدين في أسرار العالمين.
٩٠ ـ كتاب مراسم الإسلام.
٩١ ـ كتاب الأجوبة المسكتة.
٩٢ ـ كتاب قانون التأويل.
٩٣ ـ رسالة في المنطق.
٩٤ ـ الرسالة اللدنية.
٩٥ ـ آلة المعارف العقلية.
٩٦ ـ وسائل الحاجات.
٩٧ ـ الإنصاف في مسائل الخلاف.

٩٨ ـ كتاب التعليق.
٩٩ ـ كتاب لباب إحياء علوم الدين.
١٠٠ ـ خلاصة المختصر.
١٠١ ـ وجواب عن مسائل متفرقة.

وغير ذلك ذكر أغلبه الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «مؤلفات الغزالي ص ٤٧٤ وما بعدها».

أقوال بعض العلماء الأجلّاء في الإمام الغزالي:

قول الإمامين: محمد بن يحيى النيسابوري (تلميذه) والسبكي:

«لا يعرف فضله إلاَّ من بلغ أو كاد يبلغ الكمال في عقله» هذه الكلمات نقلها السبكي عن تلميذ الغزالي الإمام محمد بن يحيى النيسابوري، ثم علّق عليها بقوله:

«يعجبني هذا الكلام فإن الذي يجب أن يطلع على من هو أعلى منه في العلم يحتاج إلى العقل والفهم، فبالعقل يميز، وبالعقل يقضي، ولما كان علم الغزالي في الغاية القصوى احتاج من يريد الاطلاع على مقداره أن يكون هو تام العقل»(١).

ألقاب الإمام الغزالي:

وقد لُقِّب الغزالي بألقاب كثيرة تدل على علو مكانته أشهرها (حجة الإسلام) أنظر في ذلك:

١ ـ الزبيدي في كتابه «اتحاف السادة المتقين ١/٢ ـ ٥٣».

---

(١) عبد الكريم عثمان في سيرة الغزالي ص ١٠٠.

٢ ـ السبكي في كتابه «طبقات الشافعية الكبرى ١٠١/٤ وما يليها».
٣ ـ حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون ١٢/١، ٢٣» وأماكن أخرى متعددة.

كما لُقِّب بـ (زين الدين) أنظر في ذلك (فريد وجدي في كتابه «دائرة المعارف الإسلامية» ٦٥/٧ ـ ٦٦).

ولُقِّب بـ (العالم الأوحد)، وبـ (جمال الفرق)، وبـ (مفتي الأمة)، و(جامع أشتات العلوم)، وبـ (المبرز في المنقول منها والمفهوم)، وبـ (بركة الأنام)، وبـ (إمام أئمة الدين)(١).

وروى الحافظ أبو القاسم بن عساكر عن الشيخ الإمام أبي عامر بن لحام بن عامر أنه رأى الإمام الغزالي في الرؤيا يتقدَّم ويسلِّم على الرسول صلى الله عليه وسلم، فردَّ عليه الجواب، وناوله يده العزيزة المباركة، والغزالي يقبِّل يده، ويضع خده عليها تبركاً به، وبيده العزيزة المباركة، ثم قعد(٢).

وكان مما جاء عن محمد بن الحسن الواسطي(٣)، أن أبا بكر بن العربي تلميذ أبي حامد قال: لقيتُ الغزالي في البريَّة، وعليه مرقَّعة، وبيده ركوة وعكاز، فقلت له: أليس تدريس العلم ببغداد خيرٌ من ذا؟ فنظر إليَّ شزراً، وقال: لما بزغ بدر السعادة في سماء الإرادة، وجنَحت شمس الأصول معارف الوصول:

تـركـتُ هـوى لـيـلى وسـعـدة بمـعـزلٍ
وعـدتُ إلى تـصـحـيـح أوَّلِ مـنـزلِ
ونـادتْ بي الأشـواقُ مـهـلاً فـهـذهِ
مـنـازلُ مَـنْ تهـوى رُوَيْـدَكَ فـانـزلِ

---

(١) انظر في ذلك مفصَّلاً (الفيلسوف الغزالي ٢٩، ٣٠ للأعسم).
(٢) الطبقات العلية بتحقيق الدكتور الأعسم (١٨٩، ١٩٠).
(٣) المصدر نفسه ١٩٠.

ونقل عن الإمام الزاهد شمس الدين أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد النسائي أنه قال: رأى في تصانيف الشيخ الإمام مسعود الطراري أن شيخ الغزالي الإمام أبو بكر النساج الطوسي حين أنزل الإمام الغزالي بعد وفاته في اللحد، خرج متغيراً ممتقع اللون، فقيل له في ذلك، فلم يخبر بشيء، فأقسموا عليه فقال. إني لما وضعته في اللحد، شاهدتُ يداً يمنى قد خرجت من تجاه القبلة، وسمعت هاتفاً يقول: ضع يد محمد الغزالي في يد سيد المرسلين، فوضعتها ثم خرجت.

الإمام الغزالي أحد المجددين:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
«إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»[1].

كما روي عن الإمام أحمد قوله[2]:
إن الله تعالى يُقيِّض للناس في كل مائة سنة من يعلمهم السنن، وينفي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب.

وكان شبه إجماع من الأمة على أن الإمام الغزالي من المجددين فقد ذكر ابن عساكر[3] أن أبا الحسن الأشعري قال:
«كان على رأس المائة الأولى عمر بن عبد العزيز.... وعندي أن الذي كان على رأس الخمسمائة الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي الفقيه».

كما ذكره الإمام السيوطي (ت ٩١١) ـ والذي أعتبره من المجددين[4] ـ في أرجوزته «تحفة المهتدين بأخبار المجدِّدين» بقوله:

(١) السُّبكي تبين كذب المفتري٥٣.
(٢) الضوء اللامع ٢/٩.
(٣) تبيين كذب المفتري ٥٣.
(٤) أنظر مقدمة كتابي «معجم طبقات الحفَّاظ والمفسرين».

لقــد أتى في خبــر مشتهــر | رواه كــل حــافظ مـعتبــر
بـأنـه في رأس كـل مـائــة | يـبعـث ربنــا لهــذه الأمــة
منــا عليهــا عـالمـاً يجـدد | ديــن الهــدى لأنــه مجـدِّد
فكـان في المائـة الأولى عمر | خليفـة العـدل بـإجمـاع وقـر

ثم يقول:

والخامس الحبر هو الغزالي | وعدّه ما فيه من جدالِ أ هـ

فلا عجب في ذلك إذ أنه كان من المبرِّزين في أكثر من مجـال ومن المدافعين بحق عن الإسلام وأهله، وعمل جـاهداً سنـوات طويلة في رد الدعوات الباطنية الهدامة، والفلسفات المتهافتـة، ويكفيه من ذلـك تلقيب المسلمين له بـ«حجة الإسلام». ولا تلتفت لما يقال عنه من مآخذ، وليكن رائدك قولان:

الأول: الإنسان عدو ما يجهل.

الثاني: كل امرىء يؤخذ منه ويُردُّ عليه إلاَّ الرسـول صلى الله عليـه وسلم.

الباب الثاني

التعريف بالكتاب وتحقيقه

- اسم الكتاب ونسبته إلى أبي حامد الغزالي
- منهج الإمام في الكتاب
- قيمة كتاب «مشكاة الأنوار».

اسم الكتاب ونسبته إلى الشيخ حجة الإسلام الغزالي:

بيَّن الإمام الغزالي في بدء كتابه عن اسمه وسبب تأليفه ونسبته إليه فقال: «الحمد لله، فائض الأنوار، وفاتح الأبصار، وكاشف الأسرار، ورافع الأستار، والصلاة على رسوله محمد نور الأنوار، وسيد الأسرار، وحبيب الجبار، وبشير الغفار، ونذير القهار، . . .» ثم يقول: «فقد سألتني أيها الأخ الكريم. . .، أنَّ أبث لك أسرار الأنوار الإلهية مقرونة بتأويل ما يشير إليه ظواهر الآيات المتلوة، والأخبار المروية مثل قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

كما ورد في آخر الكتاب بخط الناسخ: «آخر كتاب مشكاة الأنوار».

كما اتفقت جميع النسخ الخطية للكتاب ـ وهي تربو على الست والثلاثين نسخة ـ على تسميته، كما أجمعت الكتب المترجمة لحياة ومؤلفات الغزالي على اسم الكتاب ونسبته إلى الغزالي.

غير أن نسخة واحدة ذُكرت في «فهرس نوادر المخطوطات العربية في تركيا» (٢٦٨/٢) أوردت اسم الكتاب بـ «كتاب المشكاة والمصباح» وهي من مخطوطات مكتبة شهيد علي باشا.

ولا يذهب الظن بالقارىء الكريم أنه كتاب «مشكاة الأنوار في لطائف الأخبار» فهذا كتاب كبير، ذكره الدكتور أبو العلا عفيفي[1] بقوله:

---

(١) تحقيق الدكتور أبو العلا (ص ٤).

توجد منه مخطوطات بدار الكتب المصرية، وفي صفحة عنوان المخطوطة رقم ٢٣٧ : تصوف (راجع مؤلفات الغزالي ٣٨١ ـ ٣٨٢).

كما أني لم أجد في ما بين يدي من كتب ومراجع خلافاً لما ذكرت.

وقارىء كتب الغزالي يُدرك مباشرة أن الكتاب من تأليف الغزالي بما يتضمنه من عبارات ومصطلحات وأسلوب ونفَسِ الإمام الغزالي.

وقد أثار البعض موضوع نسبة الفصل الثالث من الكتاب. وأنّه ليس منه، ولا دليل لهم على دعواهم إذ أن المخطوطتين اللتين بين أيدينا أكبر دليل على أن الفصل الثالث هو من صلب الكتاب بالإضافة إلى أسبابٍ عديدة أهمها:

١ ـ ورد الفصل الثالث مباشرة بعد انتهاء الفصل الثاني ودون أي فاصل أو إشارة أو ابتداء صفحة جديدة (أنظر صورة المخطوطة رقم ١ و٢).

٢ ـ الفصل الثالث مكمّل للفصلين السابقين، ولما جاء في المقدمة من كلام الغزالي عما يود بحثه في الكتاب:

«أبثُ لك أسرار الأنوار الإلهية مقرونة بتأويل ما تشير إليه ظواهر الآيات المتلوَّة والأخبار المرويّة مثل قوله تعالى: ﴿**اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ**...﴾ مع قوله صلى الله عليه وسلم: «إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة...» والفصل الثالث هو تفسير للشق الثاني وهو قول الرسول صلى الله عليه وسلم.

٣ ـ لا يختلف الفصل الثالث عن سابقَيْه من جهة الأسلوب والاصطلاحات وطريقة البحث.

٤ ـ الفصلان الأول والثاني يحتاجان إلى الفصل الثالث لإتمام الموضوع وتكامله في ذهن القارىء.

٥ ـ جاءت نهاية الكتاب في المخطوطة مع نهاية الفصل الثالث (أنظر صورة الصفحة الأخيرة رقم ١).

٦ ـ جاء من قوله في نهاية مقدمته (ص ١١٨)
«وإنما الذي ينفتح في الوقت فصول ثلاثة»

منهج الإمام الغزالي في الكتاب:

١ ـ حاول الإمام الغزالي الإيجاز والاختصار دون إخلال بالموضوع، أو إنقاص ما يلزم تبيانه في توضيح ما أراد، وذلك وفقاً لخطته التي وضعها وبيَّنها في مقدمته بقوله:
«فلا أشحُّ عليك في هذا الفن بالإشارة إلى لوامع ولوائح، والرمز إلى حقائق ودقائق».

ثم يقول:
«فاقنع بإشارات مختصرة، وتلويحات موجزة، فإن تحقيق القول فيه يستدعي تمهيد أصول، وشرح فصول، ليس يتسع الآن له وقتي».

وهو بذلك يخالف طريقته التي عهدناه بها في كتب أخرى من الشرح والتفصيل والإطناب. ولكن اختصاره مع ذلك جاء في محلِّه ودونَ إخلال بما أراد توضيحه، فالكتاب أصلاً لطبقة من السَّالكين دون غيرهم، ونرى ذلك جليّاً من خلال عباراته واصطلاحاته التي لا يمكن فهم الكتاب إلا من خلال فهمها، وفهمُها وَقْفٌ على من تهمُّه هذه المواضيع من المتصوفة والفلاسفة والمتخصِّصين، وقد أتبعت الكتاب بفهرس لمصطلحات الإمام الغزالي في هذا الكتاب.

٢ ـ جمع في شرحه للآية الكريمة أغلب أقوال المفسرين ولكن بأسلوبه الَّذي قلَّد فيه متصوِّفة عصره، كما شمل شرحه عن القراءات المتعدِّدة لها، وبنفس الطريقة شرح الآثار النبوية الشريفة، ولم ينسَ أن يوضح أن للآيات الكريمة

ظاهراً وباطناً ومعنى الأول لا يحجب الآخر والعكس. وحرص على إغلاق أي باب قد يدخل منه مشكِّك في عقيدته، إذ كان يقظاً في كلِّ عبارة يوردها، مما يدل دلالةً واضحة على وضوح عقيدته، ومعرفته بالاتجاهات السائدة في عصره، وخلوص فكرته من الشوائب التي أصابت الكثيرين ممن سار على هذا الطريق.

٣ ـ لم يلتزم الإمام الغزالي بالأحاديث والأخبار الصحيحة بل أتى بما يوضح فكرته دون النظر لتحقيق نصوصه كطريقته التي عهدناها في كلٍّ كتبه. وقد حققتها في موضعها.

قيمة كتاب «مشكاة الأنوار»

كتاب «مشكاة الأنوار» من روائع كتب الفلسفة الإسلامية في موضوعي: التوحيد، والصفات.

ومن الكتب المتخصصة في موضوعه إذ قد جمع عدداً لا بأس به من اصطلاحات الصوفية الهامة، والتي على فهمها يتوضح الكثير من المفاهيم القرآنية والحديثية لدى المتصوفة.

لا بد، أنَّه كتبه وهو في حالة روحية عالية، وصلها إثر مراحل طويلة من السلوك والترقي في حياة تخلَّص فيها من جواذب النفس والطين، مهذِّباً ومروِّضاً، ومتعبداً، وذاكراً.

كما يمثل هذا الكتاب صورة عن التأويل الباطني للآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، إضافة إلى التفسير الظاهري، بانتحاء طريقة وسطى عنوانها الحقيقة بين أهل الظاهر من الظاهريين كأحمد بن حنبل وابن حزم وبين أهل الباطن من الباطنيين كالاسماعيلية وعدداً من المتصوفة.

كما تناول بعض دعاة «وحدة الوجود»، و«الحلول والاتحاد» ونصَّب من نفسه محامياً عنهم، فدافع عنهم بالحجة والبرهان بتأويل أقوالهم ـ دون موافقته

عليها ـ وذلك على مبدأ «إلتمس لأخيك عذراً» وباعتبارهم في تلك الحالة ضمن دائرة ما تحت أو ما فوق العقل والتفكير.

والكتاب بفصوله الثلاثة محاولة جادة مدعومة بالشواهد لإثبات نظرية الكشف عن طريق الإشراق الروحي، والوصول إلى اختراق حجب ما وراء الطبيعة بتنظيف النفس، وسلوك الطريق، وإعمال الفكر من ثَمَّ.

كما أن الكتاب يُعتبر بحق المآل الروحي والفكري الإشراقيَّيْنْ لما وصل إليه الإمام الغزالي بعد طول ترحال بين العلماء والأماكن المقدسة، والكتب والفيافي والصحارى، إنه تتويج لثلاثمائة مؤلَّف بين عدة مجلدات ورسائل صغيرة، فهو خلاصة الخلاصة، وزبدة الثقافة الموسوعية لخمسة قرون من الفكر الإسلامي، وثلاثة قرون من الفكر اليوناني والإغريقي.

إن كتاب «المشكاة» سلاحٌ من العلم والمعرفة والمصطلحات بيد أهل التصوف لمقابلة كل خصومهم، والوقوف أمامهم موقف المتسامي الذي استشرف إلى ملكوت السماء إضافة لعلوم الأرض.

أليس مؤلف «المشكاة» هو نفسه مؤلف «المنخول» و«المستصفى» في أصول الفقه، وهو نفسه مؤلِّف «تهافت الفلاسفة» في الردِّ عليهم.

البَابُ الثَّالث

موضوع الكتاب

وأقوال العلماء في تفسيره

- **الآيات الكريمة المتضمّنة موضوع الكتاب.**
- **الأحاديث الشريفة المتضمِّنة هذا المعنى.**
- **المعنى اللغوي لآية النور**
  - ميِّزتها.
  - فضلها.
- **معناها عند المفسرين:**

١ ـ ابن قتيبة الدينوري. (ت: ٢٧٩ هـ)
٢ ـ الحافظ أبي بكر البيهقي الشافعي. (ت: ٤٥٨ هـ)
٣ ـ ابن الأثير الجزري. (ت: ٦٠٦ هـ)
٤ ـ ابن كثير.
٥ ـ شيخنا الشيخ أديب الصالح.
٦ ـ الإمام الشوكاني.
٧ ـ مكي بن أبي طالب.
٨ ـ الإمام السيوطي.
٩ ـ البجيرمي في «رد الأذهان».
١٠ ـ الإمام الصاوي.
١١ ـ محيي الدين بن عربي.
١٢ ـ الشيخ زكريا الأنصاري.
١٣ ـ الإمام محمد بن عمر فخر الدين الرازي (ت: ٦٠٤ هـ)
١٤ ـ شيخ الإسلام ابن تيمية.
١٥ ـ الإمام القرطبي صاحب «الجامع لأحكام القرآن».

- **القراءة.**
- **الوقف والابتداء.**

بسم الله الرحمن الرحيم

آيات:

آيات كريمة تتضمن كلمة «نور»، أثبتها دون تفسير أو دراسة، وذلك تقريباً لتناول الكتاب لدى القارىء الكريم. وأتبعها ببعض ما ورد في ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحاديث شريفة:

﴿اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧]

﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥]

﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾
[الأنعام: ١]

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢]

﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا، وَوُضِعَ الْكِتَابُ﴾ [الزمر: ٦٩]

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ﴾
[الأنعام: ١٢٢]

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالقَمَرَ نُوراً﴾ [يونس: ٥]

﴿وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٦]

الأحاديث الشريفة التي تتضمن اسمه تعالى: النور.

«اللَّهم لَكَ الحَمْدُ أنْتَ نُورُ السَّماواتِ والأرْضِ وَمَنْ فِيهن فَلَكَ الحَمْدُ»

(بخاري: تهجد ١، دعوات ٩، توصيد ٨، ٢٤، ٣٥)

(مسلم: مسافرين ١٩٩)، (أبو داود: وتر ٢٥، صلاة ١١٩)

(ترمذي: دعوات ٢٩)، (مسند ١/٢٩٨)

«أعوذُ بِنورِ وَجْهِكَ الَّذي أشْرَقَتْ بِهِ الظُّلمات».

المعنى اللغوي لآية النور:

القاموس المحيط (٢/١٤٩ ـ ١٥٠)

النور: الضوء أياً كان، أو: شعاعه.

جمعه: أنوار ـ ونيران.

وقد نار نوراً، وأنار، واستنار، ونَوَّر، وتنوَّر، ومحمد صلى الله عليه وسلم، والذي يبيِّنُ الأشياءَ.

وجبلُ النُورِ: جبلُ حِراء.

وذو النور: طُفَيْلُ بن عَمْرو الدَّوْسي دعا له النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «اللَّهُمَّ نَوِّرْ لَهُ» فسطع نور بين عينيه، فقال: أخافُ أن يكون مُثْلَةً. فتحوَّل إلى طرف سوطه، فكان يُضيء في الليلة المظلمة.

وذو النورين: عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ونَوَّر الشجر: أخرج نوره أي: أدرَكَ.

وأنارَ: حَسُنَ وظَهَرَ... الخ.

ميِّزتها:

الآية الكريمة هي الآية الخامسة والثلاثون من سورة النور، البالغ عدد آيها أربعاً وستين آية وهي مدنية. دلَّ على ذلك قرينتان:

١ ـ حديث ابن عباس وابن الزبير رضي الله عنهما «نزلت النور بالمدينة»

٢ ـ تضمَّنت أحكاماً ووقائع هي من طبيعة الآيات المدنية، كـ (حدِّ الزنا، والقذف، واللعان، وغض البصر، وحفظ الفرج، وما يجوز وما يحرم من النظر، وآداب الاستئذان، ومكاتبة الرقيق. . الخ).

٣ ـ تبرئة عائشة رضي الله عنها من شبهات المنافقين وتوعُّد أمثالهم في كل عصر، وزواج الرسول عليه الصلاة والسلام من عائشة كان في المدينة المنورة.

فضلها:

أكَّد الرسول صلى الله عليه وسلم على تعلُّم سورة النور بقوله:

«علِّموا رجالكم سورة المائدة، وعلِّموا نساءكم سورة النور»

كما حضَّ الخليفة الثاني وأوَّل أمير مؤمنين في الإسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه على تعلُّمها، فعن حارثة بن مضر قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب أن: «تعلموا سورة النساء والأحزاب والنور».

المعنى عند المفسرين

ابن قتيبة:

تناول ابن قتيبة معنى هذه الآية الكريمة في كتابه «تأويل مشكل القرآن» الكريم، ص (٣٢٧ - ٣٢٨) باعتبارها من المشكل فكان مما قال:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي: بنوره يهتدي من في السماوات والأرض.

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يعني: في قلب المؤمن. كذلك قال المفسرون وكان «أُبَيٌّ»[1] يقرأ ﴿الله نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِ المُؤْمِنَ﴾.

﴿كَمِشْكَاةٍ﴾: وهي الكُوَّة غير النافذة.

﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: أي سراج ﴿المِصْبَاحُ﴾ في قنديل، القنديل ﴿كَأَنَّهُ﴾ من شدة بياضه وتلألئه، ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾، يتوقد ذلك المصباح بزيت من شجرة ﴿لَا شَرْقِيَّةٍ﴾، أي لا بارزة للشمس كل النهار ﴿وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ لا مستترة في الظلِّ كل النهار، ولكنها شرقية غربية تصيبها الشمس في بعض النهار، والظل في بعض النهار. وإذا كان كذلك فهو أَنْضَرُ لها، وأجود لحملها، وأكثر لِنُزلِهَا، وأصفى لدُهنها.

﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ﴾ يُسْرَح به من شدة صفائه.

﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ يعني نور المصباح على نور الزجاجة والدهن ﴿يَهْدِي الله لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً﴾ في قلبه ﴿فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[2].

* * *

---

(١) أحد القرَّاء، أنظر هذا القول أيضاً في (تفسير الطبري ١٨/١٠٥) (البحر المحيط ٦/٤٥٥).

(٢) سورة النور: ٤٠.

البيهقي الشافعي الحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين (٣٨٤ - ٤٥٧ هـ)

جاء في كتابه «الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأهل الحديث» ص (٦٦).

﴿النور﴾ هو الهادي، وقيل: هو المنوِّر، وهو من صفات فعله، وقيل: هو الحق. وقيل: هو الذي لا يخفى على أوليائه بالدليل، وتصح رؤيته بالأبصار. وهذه صفة يستحقها الباري تعالى بذاته[1].

ابن الأثير الجزري:

في كتابه «النهاية في غريب الحديث» ص (٥/١٢٤ - ١٢٥).

﴿نور﴾ في أسماء الله تعالى «النُّور» هو الذي يُبْصِرُ بنوره ذو العَماية، ويَرْشُد بهُداه ذُو الغَوَاية.

وقيل: هو الظَّاهر الذي به كلُّ ظُهورٍ. فالظاهر في نفسِه المُظْهِر لغيره يُسَمَّى نُوراً.

* وعن أبي ذر قال له ابن شقيق: لو رأيتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كنتُ أسأله: هل رأيتَ ربَّك؟ فقال: قد سألته، فقال: «نورٌ أنَّى أراه؟» أي: هو نُورٌ كيف أراهُ.

سئل أحمد بن حنبل عن هذا الحديث فقال: ما زلت منكراً له، وما أدري ما وجهه.

وقال ابن خزيمة: في القلب من صحة هذا الخبر شيء، فإن ابن شقيق لم يكن يثبت أبا ذر.

وقال بعض أهل العلم: النور جسم وعرض، والباري جل وعز ليس بجسم ولا عرض، وإنما المراد أن حجابه النور، وكذا روي في حديث أبي موسى، والمعنى كيف أراه وحجابه النور: أي: إن النور يمنع من رؤيته.

(١) ص ٦٦ تحقيق أحمد عصام الكاتب طبعة دار الآفاق الجديدة ١٤٠١ هـ.

أقول (المحقق): الحديث صحيح جاء في (صحيح مسلم: إيمان ٢٩١) (الترمذي: تفسير سورة ٥٣، ٧) (مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٥٧/٥، ١٧١، ١٧٥).

وأقول كان باستطاعة محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول: كما أرادوا له أن يقول، ولكنه قال قوله الذي هو: وحيٌ يوحى، فلا أرى داعياً لهذا التأويل. (ا هـ. المحقق).

* وفي حديث الدعاء «اللهم اجعل في قلبي نوراً» وباقي أعضائه..، أراد ضياء الحقِّ وبيانه، كأنه قال: اللهمَّ إسْتَعمل هذه الأعضاءَ منِّي في الحق، واجعل تَصَرُّفي وتَقَلُّبي فيها على سبيل الصواب والخير.

* وفي صفته صلى الله عليه وسلم: «أَنْوَر المُتَجرَّد» أي نَيِّر لَوْنِ الجسم، يقال للحسَن المُشْرق اللَّون، أنْورُ، وهو أفعل من النور. يقال نارَ هو نَيِّر، وأنار فهو مُنِير.

* * *

ابن كثير في كتابه «تفسير القرآن العظيم» ٣/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ هادي أهل السماوات والأرض. عن ابن عباس.

ثم يقول ابن كثير:

وقال الضحاك: ﴿اللَّهُ نوَّرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرضِ﴾ [بتشديد الواو] ا هـ.

الشيخ أديب الصالح:

وهذا تفسير كتبه شيخنا الشيخ أديب الصالح المدرس في جامعة دمشق ـ كلية الشريعة ـ سابقاً ولم أجد له غيره، ونظراً لمكانة الكاتب، ولِعلوِّ علومه الشرعيةِ، وطولِ باعه في هذه الموضوعات لذلك أورد ما قاله دون تصرف أو تعليق: من كتابه «على الطريق ٢٧١».

يقول: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّماواتِ والأَرْضِ﴾

النور في لسان العرب: الأضواء المدركة بالبصر، والضياء، وبه تظهر الأشياء، وتدرك الأبصار حقيقة ما تراه، وقد استعمل **مجازاً** فيما صح من المعاني وظهر، ومنه: «الكتاب المنير»، وقولهم: كلام له نور.

قال النابغة الذبياني في قصيدته التي يمدح بها النعمان:

كَأَنَّكَ شَمْسٌ والْمُلُوكُ كَواكِبٌ
إذا طلعتَ لَمْ يَبْدُ منهنَّ كَوكَبُ

وإذا علمنا ذلك، أدركنا أنه **يجوز أن يقال لله تعالى: نور**، لأنه أوجد الأشياء المنوَّرة، وأوجد أنوارها. قال القرطبي: (ونور جميع الأشياء، منه ابتداؤها، وعنه صدورها، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدركة جل وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيراً)(١).

وهكذا يكون معنى **﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾** أنه به سبحانه، وبقدرته أنارت أضواؤُها واستقامت أُمورها، وقامَتْ مصنوعاتها، ألا ترى أنَّه هوَ الذي أبدع الموجودات، وجعل العقل نوراً هادياً، وأقام معالم الكمال التي تدلُّ على قدرته، وهدايته، وعدله في السماوات والأرض، وإلى مثل ذلك ذهب ابن جرير الطبري، وكثيرون، ومنه قول الشاعر:

وأَنْتَ لنا نورٌ وغَيْثٌ وعِصْمَةٌ ونَبْتٌ لِمَنْ يرْجو نداك وريق

أي: ذو ورق

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾

﴿مَثَلُ نورِهِ﴾ يرى البعض أن النور المراد هنا هو صفة دلائله سبحانه التي يقذفها في قلب المؤمن، فكأنه يمثل هذه الدلائل بالمشكاة، ويؤيد

---

(١) هذا الكلام وكلام الغزالي ص ٥٤ من مشكاة واحدة.

ذلك أن الدلائل أسميت في القرآن نوراً، وقد سمى الله تعالى كتابه نوراً فقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾ وسمى نبيه صلى الله عليه وسلم نوراً، فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ فالكتاب يهدي ويبين، وكذلك الرسول عليه الصلاة والسلام.

وعلى هذا القول: يكون وجه الإضافة إلى الله تعالى، أنه مثبت الدلالة ومبينها وواضعها.

وقد ذكر القرطبي في «جامع أحكام القرآن»[1] قولاً آخر، ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من الممثل به، بل يقوم على تشبيه جملة بجملة وذلك أن يكون المراد (مَثَل نور اللهِ الذي هو هداهُ وإتقانه صنعة كل مخلوق، وبراهينه الساطعة على الجملة، كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس. فمثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيها البشر).

وقال الشوكاني في «فتح القدير»

﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي: صفة نوره الفائض عنه، الظاهر على الأشياء كمشكاة، وهذا ـ كما يبدو ـ أقرب إلى القول الأول.. اهـ.

* * *

«العمدة في غريب القرآن» لمكي بن أبي طالب القيسي[2]:

لم يرد في كتابه تفسيراً لكلمة نور أو ما في معانيها واشتقاقاتها مما يدل أنه لم يعتبرها من الغريب أصلاً.

وجاء تفسيرها عند الإمام السيوطي في «الجلالين» على النحو الآتي:

---

(١) وسيأتي في الصفحات القادمة مفصَّلاً.

(٢) بتحقيق الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي طبع مؤسسة الرسالة ١٤٠١ هـ.

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي منورهما بالشمس والقمر ﴿مَثَلُ نورِهِ﴾ أي صفته في قلب المؤمن. . . . الخ.

أما تفسير «رد الأذهان إلى معاني القرآن» لأبي بكر محمود البجيرمي فقد حكى الآتي:

﴿اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ أي منورهما بالنور الحسي من نحو الكواكب، والمعنوي من الملائكة والأنبياء، أي: الله هادي من فيهما بما يرشد البصر والبصيرة ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي صفته في قلب المؤمن.

وفي نهاية الآية يقول: ثم وصف تعالى موضع المشكاة التي يخرج منها نوره فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ﴾ (٤٦٢ - ٤٦٣).

وجاء في «تفسير الصاوي» على الجلالين (٣/ ١٣٩) ما يأتي:

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ اعلم أن حقيقة النور كيفية تدركها الباصرة[٢] أولاً وتدرك بواسطتها أولاً، وتدرك بواسطتها سائر المبصرات، كالكيفية الفائضة من النيرين على الأجرام الكثيفة المحاذية لها، وهو بهذا المعنى مستحيل إطلاقه على الله، وحينئذ فيجاب عن الآية بأن معنى قوله: ﴿نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ خالق النور في السموات بالشمس والقمر والنجوم والكواكب والعرش والملائكة، وفي الأرض بالمصابيح، والسرج، والشموع، والأنبياء، والعلماء، والصالحين.

وقيل معنى ﴿نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ مُظهرهما لأن النور كما يُطلق على الكيفية يطلق على الظاهر في نفسه المُظهر لغيره، وهو بهذا المعنى

---

(١) سورة النور، آية ٣٦.
(٢) البصر الباطني.

يصح إطلاقه على الله تعالى فهو سبحانه وتعالى نور بمعنى مُظهر للأشياء من العدم إلى الوجود. اهـ.

ثم يقول كلاماً أعتبره كُفراً ينقله بدوره عن ابن عطاء الله السكندري في الحِكَمْ: «الكون كله ظلمة أناره ظهور الحق فيه فوجود العالم بوجود الله إذ لولا وجود الله ما وجد شيء من العالم» غفر الله لقائل هذا الكلام فلو درى معناه ما قاله لأنه يقرر وجود الظلمة قديماً مع الله. وكأنه أراد أن يقول ما قاله الشيخ محيي الدين بن عربي: عن هذا المعنى.

«أخرجنا من ظلمة العدم، إلى نور الوجود، فكنا نوراً بإذن ربنا، إلى صراط العزيز الحميد، فنقلنا إلى ظلمة الحيرة»[1]، «فإذا عمد الإنسان إلى مرآة قلبه، وجلاّها بالذكر وتلاوة القرآن، فحصل له من ذلك نور، والله نور منبسط على جميع الموجودات يسمى نور الوجود»[2].

شيخ الإسلام زكريا بن محمد الأنصاري (٩٢٦ هـ)

في كتابه «فتحُ الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن».

أعرض الأنصاري عن كشف ما يلتبس في أوائل الآية ربما ظناً منه أن ليس فيها ما يلتبس وبدأ بقوله تعالى:

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ﴾ أي مثل صفة نوره تعالى كصفة نور مشكاة.

ثم يقول:

فإن قلت: لِمَ مَثَّل الله نوره ـ أي معرفته في قلب المؤمن ـ بنور المصباح، دون نور الشمس، مع أن نورها أتمّ.

---

(١) فصوص الحكم ٤١٢/٣.

(٢) المصدر نفسه ٢٤١/٢.

قلت (الأنصاري): لأن المقصود: تمثيل النور في القلب، والقلب في الصدر، والصدر في البدن، كالمصباح، والمصباح في الزجاجة، والزجاجة هي القنديل، وهذا التمثيل لا يستقيم إلا فيما ذكر.

أو: لأنَّ نور المعرفة له آلات يتوقف هو على اجتماعها، كالذهن، والفهم والعقل، واليقظة، وغيرها من الصفات الحميدة، كما أن نور القنديل يتوقف على اجتماع القنديل، والزيت، والفتيلة، وغيرها.

أو لأن نور الشمس يشرق متوجِّهاً إلى العالم السفلي، ونور المعرفة يشرق متوجِّهاً إلى العالم العلوي، كنور المصباح، ولكثرة نفع الزيت، وخلوصه عما يخالطه غالباً، وقع التشبيه في نوره نور الشمس، مع أنَّه أتم من نور المصباح. اهـ[1].

القرطبي في تفسيره: «الجامع لأحكام القرآن»:

وقد أسهب القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة حسب طريقته في تفسير جميع آي القرآن الكريم، إذ يقول[2]:

النور في كلام العرب: الأضواء المُدركة بالبصر، واستعمل مجازاً فيما صح من المعاني ولاح، فيقال منه: كلامٌ له نور. ومنه: الكتاب المنير، ومنه قول الشاعر:

نَسَبٌ كأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحا   نُوراً وَمِنْ فَلَقِ الصَّباحِ عَمودا

والناس يقولون: فلانٌ نور البلد، وشمس العصر وقمره. وقال[3]:

فـإنَّكَ شَمْسٌ والملوكُ كَـواكب   [إذا طلعتَ لم يبدُ مِنهنَّ كَوْكَبُ]

(١) ص (٤٤٤ ـ ٤٤٥).
(٢) ١٢/٢٥٥ ـ ٢٥٧.
(٣) النابغة الذبياني يمدح النعمان.

وقال آخر:

هلاً خصصت من البلاد بمقصد　　　قمرَ القبائل خالد بن يزيد

وقال آخر:

إذَا سارَ عبدُ اللَّهِ من مَرْوَ ليلةً　　　فقدْ سارَ نُورها وجَمالها

فيجوز أن يُقال لله تعالى نور من جهة المدح لأنه أوجد الأشياء، ونور جميع الأشياء منه ابتداؤها، وعنه صدورها، وهو سبحانه ليس من الأضواء المدرَكَة جلَّ وتعالى عما يقول الظالمون عُلُوَّاً كَبيراً.

وقد قال هشام الجوالقي وطائفة من المجسمة: هو نور لا كالأنوار، وجسمٌ لا كالأجسام، وهذا كله محال على الله تعالى عقلاً ونقلاً على ما يعرف في موضعه من علم الكلام. ثم إن قولهم متناقض، فإن قولهم، جسم أو نورٌ حكمٌ عليه بحقيقة ذلك، وقولهم: لا كالأنوار ولا كالأجسام نفيٌ لما أثبتوه من الجسمية والنور، وذلك متناقض، وتحقيقه في علم الكلام، والذي أوقعهم في ذلك ظواهر أتبعوها منها هذه الآية، وقوله عليه السلام إذا قام من الليل يتهجد:

«اللهم لك الحمد أنت نور السماوات والأرض».

وقال عليه السلام، وقد سئل: هل رأيت ربك؟:

«رأيت نوراً».

إلى غير ذلك من الأحاديث.

واختلف العلماء في تأويل هذه الآية:

[١] * فقيل: المعنى أي به وبقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، وقامت مصنوعاتها، فالكلام على التقريب للذهن كما يقال: الملك نور أهل البلد، أي به قوام أمرها، وصلاح جملتها، لجريان أموره على

سنن السَّداد، فهو في الملِك مجاز، وهو في صفة الله حقيقة محضة، إذ هو الذي أبدع الموجودات، وخلق العقل نوراً هادياً، لأن ظهور الموجود به حصل كما حصل بالضَّوء ظهور المبصرات، تبارك الله تعالى لا ربَّ غيره، قال معناه مجاهد والزهري وغيرهما.

[٢] * قال ابن عرفة: أي منوِّر السماوات والأرض. كذا قال الضَّحاك والقرظي، كما يقولون: فلان غياثنا، أي مغيثنا، وفلان زادي، أي: مزوِّدي. قال جرير:

وأنْتَ لنا نورٌ وغَيْثٌ وعِصْمة ... ونبْتٌ لمن يرجو نَداك ورِيقُ

أي ذو ورَق.

[٣] * وقال مجاهد: مدبِّر الأمور في السماوات والأرض.

[٤] * أُبَيُّ بن كعب والحسن وأبو العالية: مُزَيِّن السماوات بالشمس والقمر والنجوم، ومُزَيِّن [٥] الأرض بالأنبياء والعلماء والمؤمنين.

[٦] * وقال ابن عباس وأنس: المعنى: الله هادي أهل السمٰوات والأرض. والأول أعم للمعاني، وأصح مع التأويل، اهـ من الجامع لأحكام القرآن ١٢/٢٥٧. أقول (المحقق):

كما أسهب موضِّحاً معاني بقية الآية الكريمة: أُورد لشموله ما يصح من التفاسير:

﴿مَثَلُ نورِهِ﴾ أي صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن، والدلائل تسمى نوراً. وقد سمى الله تعالى كتابه نوراً فقال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾(١) وسمى نبيه نوراً فقال: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾(٢) وهذا لأن الكتاب يهدي ويبين، وكذلك الرسول، ووجه الإضافة إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبيِّنها وواضعها.

وتحتمل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثال بجزء من

(١) سورة النساء، الآية ١٧٤.
(٢) سورة المائدة، الآية ١٥.

الممثل به بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة، وذلك أن يريد مَثَل نور الله الذي هو هداه، وإتقانه صنعة كل مخلوق، وبراهينه الساطعة على الجملة، كهذه الجملة من النور الذي تتخذونـه أنتم على هذه الصفة، التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس، فمثل نور الله في الوضوح كهذا الذي هو منتهاكم أيها البشر. ا هـ.

ابن تيمية[1]:

قول من قال:

﴿اللهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرضِ﴾: هادي أهل السموات والأرض، كلام صحيح، فإن من معاني كونه نور السموات والأرض أن يكون هادياً لهم.

إمَّا أنهم نَفَوْا ما سوىٰ ذلكَ فهذا غيرُ معلومٍ، وإمَّا أنهم أرادوا ذلك، فقد ثبت عن ابن مسعود أنه قال: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور السماوات من نور وجهه، وقد تقدم عن النبي صلى الله عليه وسلم من ذكر وجهه، وفي رواية النور ما فيه كفاية [يقصد ابن تيمية الحديث: «حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»] فهذا بيان معنى غير الهداية.

وقد أخبر الله في كتابه أن الأرض تشرق بنور ربها[2]، فإذا كانت تشرق من نوره كيف[3] لا يكون هو نوراً، ولا يجوز أن يكون هذا النور المضاف إليه إضافة خلق وملك واصطفاء كقوله ﴿نَاقَةُ اللهِ﴾[4] ونحو ذلك لوجوه:

أحدها: أن النور لم يضف قط إلى الله إذا كان صفة لأعيان قائمة، فلا يقال في المصابيح التي في الدنيا أنها نور الله، ولا في الشمس والقمر، وإنما يقال كما قال عبد الله بن مسعود: إنَّ رَبَّكم ليسَ عِنْدَه ليلٌ ولا نهارٌ نورُ السَّمواتِ مِنْ نُور وَجْهِهِ.

وفي الدعاء المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم: «أعوذُ بنورِ وَجْهِكَ الَّذي أَشْرَقَت لَهُ الظُّلُماتُ، وَصَلُحَ عَلَيْه أَمْر الدُّنيا والآخرة».

الثاني: أن الأنوار المخلوقة كالشمس والقمر تُشرق لها الأرض في

---

(١) من تفسير سورة النور تحقيق صلاح عزام، طبعة الشعب، القاهرة ص ١٢٧ ـ ١٤٢ بتصرف.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٩.

(٣) استفهام إنكاري.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٧٣.

الدنيا، وليس من نور إلاَّ وهو خلقٌ من خلقِ اللَّهِ، وكذلك من قال: منوِّر السَّماوات والأرض لا يُنافي أَنَّهُ نورٌ، وكلُّ منور نور[1] فهما متلازمان.

ثم إن الله تعالى ضرب مثل نوره الذي في قلوب المؤمنين بالنور الذي في المصباح، وهو في نفسه نور وهو منور لغيره. فإذا كان نوره في القلوب هو نور، وهو منور، فهو في نفسه أحق بذلك، وقد عُلم أنَّ كلَّ ما هو نور فهو منوِر

ردهم:

وأما قول من قال معناه منور السماوات بالكواكب فهذا إن أراد به قائله أن ذلك من معنى كونه نور السماوات، وأنه أراد به ليس لكونه نور السماوات والأرض، والكواكب لا يحصل نورها في جميع السماوات والأرض، وأيضاً فإنه قال: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ فضرب المثل لنوره الموجودِ في قلوب المؤمنين، فعُلم أن النور الموجود في قلوب المؤمنين نور الإيمان مرادٌ من الآية لم يضربها على النور الحسي الذي يكون للكواكب وهذا هو الجواب عما رواه عن ابن عباس في رواية أخرى، وأبي العالية والحسن بعد المطالبة بصحة النقل، والظن ضعفه عن ابن عباس لأنهم جعلوا ذلك من معاني النور، أما أن يقولوا قوله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ﴾ ليس معناه إلاَّ التنوير بالشمس والقمر والنجوم، فهذا باطل قطعاً.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: «أنتَ نورُ السَّماوات والأرض، ومن فيهنَّ» ومعلوم أنَّ العميان لا حظَّ لهم في ذلك، ومن يكون بينه وبين ذلك حجاب لا حظ له في ذلك، والموتى لا نصيب لهم من ذلك، وأهل الجنة لا نصيب لهم من ذلك، فإن الجنة ليس فيها شمس ولا قمر كيف وقد روي: أن أهل الجنة يعلمون الليل والنهار بأنوار تظهر من العرش مثل ظهور الشمس لأهل الدنيا فتلك الأنوار خارجة عن الشمس والقمر».

---

(١) لا أرى من دليل على صحة هذه الدعوى، حتى لو كانت صحيحة فقد تكون في بعض الأشياء دون بعض.

ثم يقول ابن تيمية:

«إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات، فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها، وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما رووه من الحديث، ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير، فلم أجد إلى ساعتي هذه عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئاً من آيات الصفات، أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف، بل عنهم من تقرير ذلك، وتثبيته، وبيان أن ذلك من صفات الله ما يخالف كلام المتأوِّلين ما لا يُحصيه إلاَّ الله».

ثم يقول:

«إن ابن كلاب والأشعري وغيرهما ذكرا أن نفي كونه نوراً في نفسه هو قول الجهمية والمعتزلة، وأنهما أثبتا أنه نور، وقررا ذلك هما، وأكابر أصحابهما، فكيف بأهل الحديث، وأئمة السنة، وأول هؤلاء المؤمنين بالله وبأسمائه وصفاته، رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أجاب النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال الذي عارض به المعترض، فقال صلى الله عليه وسلم: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه» فأخبر أنه حجب عن المخلوقات بحجابه النور أن تدركها سبحات وجهه، وأنه لو كشف ذلك الحجاب لأحرقت سبحات وجهه ما أدركه بصره من خلقه، فهذا الحجاب عن إحراق السبحات يبين ما يرد في هذا المقام».

ثم يقول:

«فقد تبين أن جميع ما ذكر من الأقوال يرجع إلى معنيين من معاني كونه نور السماوات والأرض، وليس في ذلك دلالة على أنه في نفسه ليس بنور» اهـ.

القراءة:

قرأ[1] عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة، وأبو عبد الرحمن السّلمي ﴿الله نَوَّرَ﴾.

الوقف والابتداء

قال[2] ابن الأنباري ﴿الله نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وقف حسن، ثم تبتدىء ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ على معنى نور محمد صلى الله عليه وسلم.

وقال أُبيّ بن كعب وابن جبير أيضاً والضحاك: هو عائد على المؤمنين.

وفي قراءة أُبيٍّ (مَثَلُ نُورُ المؤمِنِينَ).

وروي أن في قراءته (مَثَلُ نورُ المُؤمِنِ).

وروي أن فيها (مَثَلُ نُورُ مَنْ آمَنَ بِهِ) وقال الحسن: هو عائد على القرآن والإيمان.

قال مكي [ابن طالب]: وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله: ﴿والأَرْضِ﴾ اهـ[3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن ٢٥٩/١٢. وانظر (المكتفى في الوقف والابتداء، تحقيق الدكتور يوسف مرعشلي ص (٤٠٨) وأيضاً (النحاس في القطع ص ٥١٠ ـ ٥١١).

(٢) المصدر نفسه: ٢٦٠/١٢.

(٣) المصدر نفسه (بتصرف).

البَابُ الرَابـع

- مصادر عن الكتاب.
- طبعات الكتاب.
- ترجمات الكتاب.
- دراسات حول الكتاب.

مصادر عن الكتاب[1]:

١ ـ كشف الظنون ١٦٩٤.

٢ ـ مؤلفات الغزالي ١٩٣.

طبعات الكتاب:

١ ـ طبعة أولى ـ القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ.

٢ ـ طبعة ثانية ـ القاهرة سنة ١٣٢٥ هـ.

٣ ـ طبعة ثالثة ـ القاهرة سنة ١٣٥٣ هـ.

٤ ـ طبعة أولى ـ حلب سنة ١٣٤٠ هـ.

٥ ـ طبعة ـ القاهرة ـ سنة ١٣٩٢ هـ ضمن مجموع (القصور العوالي من رسائل الإمام الغزالي).

٦ ـ طبعة حققها الدكتور أبو العلا عفيفي (أنظر بحث النسخة المطبوعة) سنة ١٣٨٣ هـ في القاهرة.

ترجمات الكتاب:

١ ـ ترجمه إلى العبرية اسحاق بن يوسف الفاسي، ومنها نسخة بجامعة اكسفورد برقم ٣٢٥.

(١) عن فهرس مخطوطات الظاهرية بدمشق: ١٨٤٤ ـ مشكاة الأنوار.

٢ ـ ترجمه إلى الانكليزية جيردينر ونُشر بلندن سنة ١٩٢٤ م.
٣ ـ ترجمه إلى الفرنسية ديلاديلار وحققه سنة ١٩٨٢ طبعه دار ســاي وهي نفس الدار التي طبعت كتاب «وعود الإسلام» لروجيه كارودي.

دراسات حول الكتاب:

١ ـ ڤنسنك من ليدن كتب مقالاً في عشر صفحات عن الكتاب وفكرته سنة ١٩٤٤ م.
٢ ـ جيردنير أيضاً دراسة بعنوان «مشكاة الأنوار ومشكلة الغزالي» ١٩١٤ م.
٣ ـ مونتغمري في بحث ألقاه في مؤتمر المستشرقين سنة ١٩٤٨ في باريس.

ويُبدي ونسنك إعجابه بالغزالي حين «قسَّم عوالمه الثلاثة بشكل يتيح له أن يربط بين عالم الملك والشهادة، وعالم الجبروت بعالم الملكوت، وهو ما لا يعرف الكثرة والنقص، وقد أوجده الله بإرادته القديمة»[١] وهذا ما سنراه متَّصلاً بعبارة الغزالي في صفحات الكتاب.

ويمكن اعتبار الإمام الغزالي إمام عالمي ففي أوروبا مثلاً وبعد عصر الترجمة، وأيام الجدل الجديد في الدين والفلسفة على أوجه، معروفاً على نطاقٍ واسع بـ (Algazel) (Abu Hamet) وتعرفه أوروبا اليوم بـ (Alghazali) و(Algazzali)[٢].

---

(١) انظر (الأعسم ـ الفيلسوف الغزالي ٥٤) عن Wenisnck; op. cit; p. 85.
(٢) المصدر نفسه ٢٨.

البَابُ الخَامِس

نسخ الكتاب وخطة التحقيق

- خطة التحقيق.
- مواصفات المخطوطة.
- ميزات المخطوطة.
- النسخة الثانية.
- مخطوطات للكتاب أيضاً.
- صورة عن عدة صفحات من المخطوطة.

خطة التحقيق:

اعتمدت في تحقيق الكتاب على النسخ المخطوطة التي أوردت صوراً عن أولها وآخرها وصفحة من وسطها توضح نهاية الفصل الثاني وبداية الفصل الثالث. وعملت في الكتاب حسب النقاط الآتية:

١ ـ قابلت بين النسخة المخطوطة وهي نسخة نفيسة وقريبة من المؤلف، والنسخة المطبوعة ـ وهي مقابلة على عدة نسخ مخطوطة ـ فوجدتُ أن المخطوطة أوضح وأصح وتوافق أغلب النسخ المخطوطة التي اعتُمد عليها في المطبوعة. وسجّلت الفروق في الهوامش، وفي بعض الأماكن اخترت العبارات التي وجدتها توضح المعنى أكثر وبينت ذلك في الهامش، ولكنها لا تتعدى الـ ٥٪، ثم عمدت إلى النسخة المخطوطة الثانية فقابلتها على المخطوطة الأولى والمطبوعة فلم أجد ما يفيد.

٢ ـ ذكرتُ مواضع الآيات الكريمة من القرآن الكريم، والأحاديث الشريفة من كتب الصحاح والسنن، والأقوال المأثورة عمَّن نقلها الإمام الغزالي، ومواضعها في كتب المصادر.

٣ ـ شرحت ما غَمُض من الألفاظ والنقول. وأوضحت ما أراده المؤلف منها، واستخرجت الكلمات الاصطلاحية والتي تعني لدى أهل الطريق غير ما تعنيه لغوياً وضعت منها معجماً ألحقته بالكتاب. وما كان منها مُلحّاً شرحته في موضعه مباشرة.

٤ ـ أشرتُ إلى مواضع التحريف والتصحيف، وإلى العبارات المتناظرة التي تُشكِلُ رسماً على القارىء وخلَّصتها إلى قراءتها الصحيحة إما رسماً أو ضبطاً أو شرحاً.

٥ ـ ما نقلت عبارة أو سجلت رأياً، أو أوردت فكرةً إلاّ وألزمت نفسي بذكر اسم المرجع أو المصدر واسم مؤلفه ورقم الجزء والصفحة. رغبة في الدقة، وتسهيلاً للقارىء الكريم إن رغب الدرس والمراجعة.

٦ ـ بَيَّنْتُ أسباب اختيار الكتاب والعمل على تحقيقه ونشره مجدَّداً بين الناس، رغم وجوده في الأسواق محققاً من قبل الدكتور أبو العلا عفيفي ـ رحمه الله ـ.

٧ ـ ناقشتُ بعض آراء الدكتور أبو العلا عفيفي حول الإمام الغزالي وكتابه الذي بين أيدينا، وآراء بعض العلماء فيه.

٨ ـ نصرتُ الغزالي فيما ذهب إليه من آراء، مناقشاً أوجه التشابه والتضاد بين الغزالي وما أُشيع عنه في موضوع وحدة الوجود.

٩ ـ قدَّمت للكتاب بما يليق به في موضوعه وأثره ونتائجه وحاجتنا إليه.

هذا، وإنني كلما سهرتُ مع هذا الكتاب أعمل بتحقيقه، وبالتعمق بقراءاته وتمحيص نصوصه. رأيت في نومي أحد الصحابة الكرام أو مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم. أو رأيت نفسي جالساً بين العلماء نتحدث بعوالي الأمور.

لذلك كنت أجد في كل مرة أجلس مع هذا الكتاب من المتعة والتسامي ما يدفعني للإستزادة من مطالعة ودرس كتب الغزالي وأمثاله من علمائنا الأجلاء سائلاً المولى عز وجل أن يجعل عملي خالصاً لوجهه الكريم، ويثيبني عليه بأن يجعل في سمعي نوراً، وفي بصري نوراً وفي قلبي نوراً.

مواصفات المخطوطات

النسخة الأولى

اعتمدت بتحقيق هذا الكتاب على نسختين:

الأولى: مخطوطة محفوظة في «مكتبة الجامعة الأميركية» وعمرها ٨٦٢ سنة ضمن مجموعة مخطوطاتها، تحت رقم (٣٢٥) وضمن تسلسل الأماكن المرقم بـ 297.3 GAmA. ولم يرد ذكرها في أيّ من كتب فهارس المخطوطات المطبوعة حتى الآن.

وقد ذُكر على الكتاب اسمه واسم مؤلفه، بالإضافة إلى ملاحظات تشير أن كتابين للغزالي يتبعانه: (معراج السالكين) و(المضنون به على غير أهله) ولكن مُشطَّب عليهما بعد ذلك بخط مغاير. كما كتب عليه بخط حديث نسبياً: كُتبت ٣٦ سنة بعد وفاة المؤلف. كما وجدت في نهاية المخطوطة عدة ورقات ملحقة بنفس الخط والناسخ بعنوان «أجوبة الإمام الغزالي على سؤالات» وتبدأ بالوجه الثاني لآخر صفحة من الكتاب وهي برقم (٥٠).

حالة المخطوطة:

جيدة، لا ينقص منه شيء، وهوامشه أيضاً كاملة واضحة، وبخط صغير وجميل. غير أن الأرضة بدأت بنخر بعض الصفحات وقد بينتُ ذلك للمسؤولين فوعدوا بتداركه حرصاً على هذا التراث العظيم وخاصة لإمام عظيم ملأ فكره العالم بعد مئات السنين من وفاته.

عدد أوراقها:

٢٥ ورقة على الأولى عنوان الكتاب واسم مؤلفه، ومن الثانية يبدأ الكتاب (انظر صورة الصفحة الأولى).

صفحاتها:

٤٩ صفحة، والصفحة رقم ٥٠ هي من أجوبة سؤالات لموضوع آخر كما ذكرتُ.
طول الورقة ٢٠,٣ سنتم والكلام فيها ١٥ سنتم.
عرض الورقة ١٤ سنتم والكلام فيه ١٠ سنتم.
في كل صفحة ١٩ سطراً من دون وصلة بين الصفحات.

نوع الورق:

عادي وسميك أبيض ضارب إلى السُّمرة.

الخط:

واضح وجيد، نسخي، سهل القراءة، كُتبت فيه العناوين ومطالع الجمل بالحمرة، وسائر الكلام بالأسود الشديد السواد.

نقاطه واضحة، وأحرفه نصف مشكولة. صحح الناسخ بعض أغلاطه إما بشطب الخطأ وتصويبه بعده، أو بالهامش، وكأنه قرأها بعد كتابتها على شيخ أو نسخة أخرى. وبعض التصويبات أثبتها في الهامش توافق ما جاء في المخطوطات التي أشار إليها الدكتور أبو العلا عفيفي في النسخة المطبوعة، وهنالك أيضاً بعض التصويبات من قارىء أو متملك للمخطوط آخر غير ناسخه، توافق أيضاً ما جاءت به بعض المخطوطات المشار إليها في المطبوع، وهي تُظهر صحة هذا المخطوط عن غيره، لعدم انسجام هذه

التصحيحات الأخيرة مع النص. وهذا سيظهر لك أخي القارىء حين قراءة الكتاب. والالتفات لتحقيقاتي في الهامش.

كما أن على الهامش تعليقات واضحة غير ممهورة بأي اسم أو توقيع.

بداية المخطوط:

يبدأ المخطوط، عونك اللهم، قال الإمام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رحمه الله: الحمد لله فايض الأنوار، وفاتح الأبصار.

نهاية المخطوط:

ينتهي المخطوط بنهاية الفصل الثالث حيث يقول ناسخه:
آخر كتاب مشكاة الأنوار، والحمد لله حق حمده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وافق الفراغ من نسخه محمد بن محمد بن عيسى بن محمد بن عبيق الأموي ليلة السبت التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

ميزات المخطوطة الأولى:

يمكن إجمال ميزات هذه المخطوطة بأربع نقاط رئيسية:

١ ـ قريبة جداً من سني حياة المؤلف.
٢ ـ واضحة الكلمات، وبحالة جيدة.
٣ ـ ضُبطت على أكثر من نسخة، أو شيخ، نظراً للتصحيحات المتعددة وبأكثر من خط على هوامشها.

٤ - في نهاية الصفحة ٤٠ السطر ٣ من تحت. يبدأ الفصل الثالث في معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «إن لله سبعين حجاباً من نور» من دون فصل بين الكلمات، أو إشارة إلى اختلاف الناسخ، أو الخط، أو الكتاب، مما يدل دلالة بيِّنة أنَّ الفصل الثالث هو من صلب الكتاب، وهذا ما تناولت دراسته في مقدمتي.

النسخة المخطوطة الثانية

مخطوطة مكتبة السليمانية

وهي مخطوطة محفوظة في المكتبة «السليمانية» في تركيا تقع ضمن مجموع يحوي عدة مصنفات صغيرة للإمام الغزالي والفخر الرازي وابن سينا تبدأ من الصفحة ١٤٧ آ إلى ١٥٨ ب.

حالة المخطوطة: جيدة كاملة الصفحات، واضحة، بخط جميل.
عدد أوراقها: ١١ ورقة في ٢٢ صفحة في كل صفحة ٢٩ سطراً.

وحين قابلتها على بقية النسخ تبينت كثرة التحريف، والتقديم والتأخير.
وقد ذكرها بروكلمان Zu 8.423 في موسوعته «تاريخ الأدب العربي».
والدكتور عبد الرحمن بدوي ص ١٩٤ في «مؤلفات الغزالي».

وقد اكتفيت بإيراد صورة عن بعض صفحاتها دون ذكر فروقاتها مع بقية النسخ لكثرة التحريف فيها من دون زيادة فائدة تذكر.

النسخة المطبوعة

وهي النسخة الثانية اعتماداً:
وهي محققة تحقيقاً علمياً من قبل الدكتور أبو العلا عفيفي على عدة نسخ تتفق مع المخطوطة الأولى باختلافها اختلافاً بيِّناً عن النسخ المطبوعة قبل ذلك وهي:

الأولى: بمطبعة الصدق في مصر سنة ١٩٠٤.

الثانية: بالانكليزية ترجمها W.H.T Gairdner London 1924.

الثالث: ١٣٤٣ هـ ضمن مجموع بعنوان: «الجواهر الغوالي من رسائل حجة الإسلام الغزالي».

الرابعة: ١٣٥٢ هـ في مصر.

وقد اعتمد الدكتور على مخطوطتين اعتبرهما أساساً للمنشور.

الأولى: مخطوطة شهيد علي، في استانبول رقمها ١٧١٢، ويوجد منها صورة شمسية بدار الكتب المصرية رقمها ٣٦٦٢: تصوف، تقع في ٤٣ ص، ٢٣ سطراً.

كتبت سنة ٥٠٩ هـ أي بعد وفاة الغزالي بأربع سنوات.

ويصفها بأنها:

١ ـ كثيرة الأخطاء والتحريفات والأغلاط النحوية حتى في اسم مؤلفها (أستغرب كيف اعتمدها حتى ولو كانت أقرب المخطوطات إلى المؤلف فهي بذلك تُثبت التحريف أكثر).

٢ ـ أكلت الأرضة بعض الكلام فيها.

الثانية: مخطوطة بلدية الاسكندرية: رقمها ١٧٨٢، وتقع في ٣٤ ص، ١٩ سطراً.

كتبت سنة ٩٠٧ هـ.

ويصفها الدكتور أبو العلا بأنها

١ ـ أدق من الأولى.

٢ ـ سقط منها كلمات، وأحياناً جملاً قصيرة هامة.

مخطوطات للرسالة أيضاً:

حتى الآن عرفنا أماكن سبعاً وثلاثين مخطوطة لرسالة «مشكاة الأنوار» موزعة في أنحاء كثيرة من العالم وهي حسب تاريخها:

أماكن تواجد المخطوطة

١ ـ بلدية الاسكندرية وتاريخها ٩٠٧ هـ.

٢ ـ قوله جـ ١ ص ٣٦٢.

٣ ـ الموصل ١٧٦ [٨].

٤ ـ تيتا ٢: ٤١٢ [برقم ٢٥٨٠ (٨)].

٥ ـ برلين رقم ٣٢٠٧.

٦ ـ ليدن رقم ١٩٨٨.

٧ ـ مخطوطات بريل ٢: ١٥٣.

٨ ـ لامبروزيانا (A 64, V (RSO I 11,573).

٩ ـ الفاتيكان بورجيري ٦٥ .VAT. Borgh.

١٠ ـ مانشستر أو ٦١.

١١ ـ برنستون، مجموعة جادت رقم ١٨٩٢ وتاريخه ٩٣٧ هـ.

١٢ ـ المكتب الهندي بلندن رقم ١٢٣٧ فهرس آريري بتاريخ ١٠٩٦، ورقم ١٢٣٨ بتاريخ ١١٠٧.

١٣ ـ طهران: مجلس شواري على رقم ٩٠١٥ بتاريخ ١٣٢٠.

١٤ ـ آيا صوفيا ١: ٣٨٨ [١٤ (٥) تصوف عربي].

١٥ ـ طهران ٢/ ٧٧.

١٦ ـ رامپور ١/ ٦٩٧.

١٧ ـ الظاهرية عام ٧٦٢١.

في استانبول

١٨ ـ شهيد علي ١٧١٢، ١٣٧٧.

١٩ ـ بشير آغا ٦٥٠.
٢٠ ـ السليمانية ٧٣٤ (وهي النسخة المخطوطة الثانية عندي، ولم أعتمدها).
٢١ ـ كوبر يلي برقمي٨٦٠، ١٦٠٣.
٢٢ ـ آيا صوفيا ٢٠٧٥، ١٧١١ [٣] ٤٨٠١.
٢٣ ـ جاد الله ١٠٩٢ [١] ٢٠٧٥.
٢٤ ـ ولي الدين ١٨٢٩.
٢٥ ـ سليم آغا المجموع رقم ١٠٨.
٢٦ ـ أسعد ١٧١٧، ١٨. وفي دار الكتب المصرية.
٢٧ ـ ٢٦٧٣ تصوف بتاريخ ١٠٦٥.
٢٨ ـ برقم ١٨٤ تصوف (ضمن مجموع).
٢٩ ـ مجاميع طلعت بالأرقام ٢٧٤، ٥١٣، ٣٢٦، ٨٢٢، ٨٢٦.

وفي باريس:

٣٠ ـ باريس برقم ١٣٣٠.
٣١ ـ اسكوريال (٢) برقم ٦٣١.
٣٢ ـ جوتا (فهرس برتش ق ٣ جـ ٢ ص ٣٧٨) برقم ١١٦٦ بتاريخ ١١٨٨.

انظر «مؤلفات الغزالي» للدكتور عبد الرحمن بدوي ص ١٩٤.

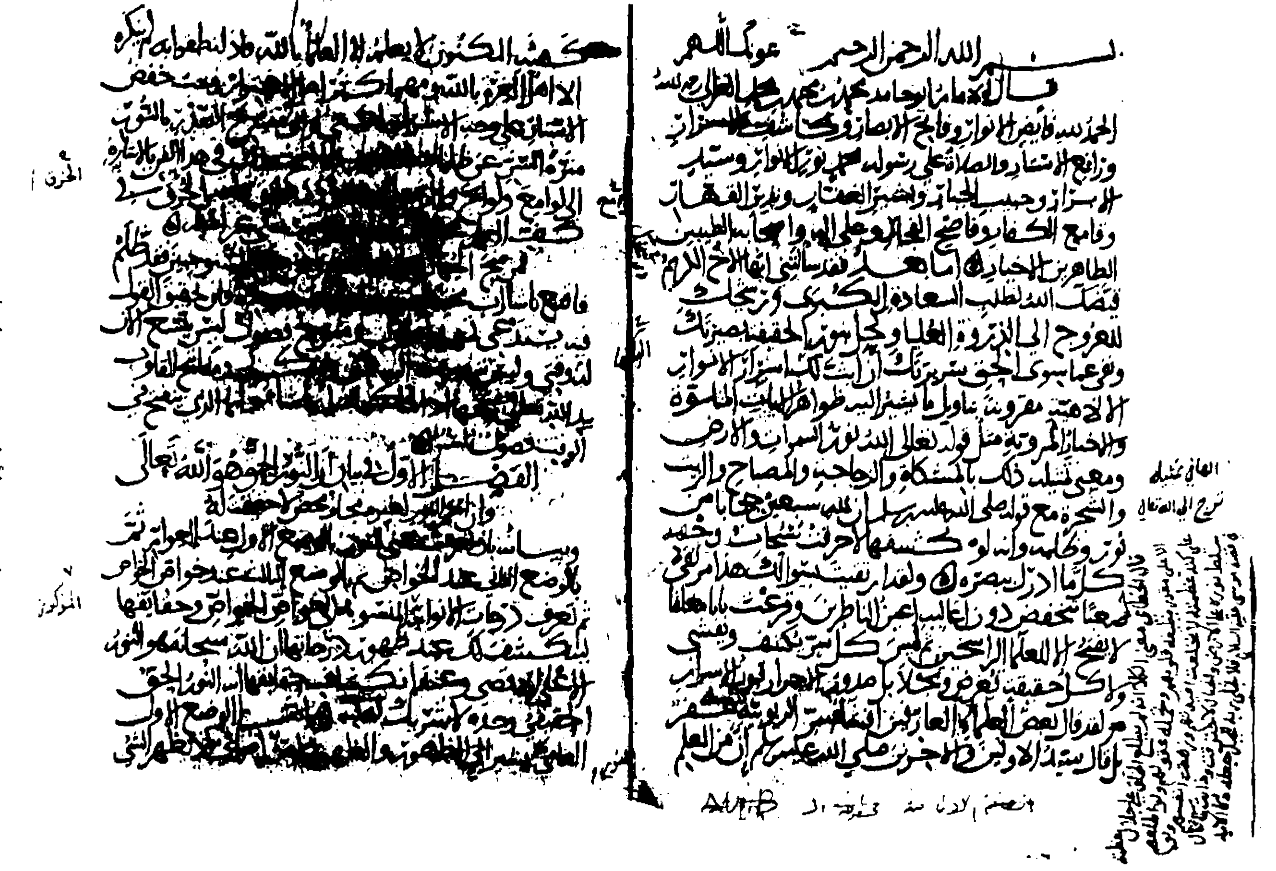
الصفحة الأولى من مخطوطة المكتبة السليمانية في تركيا

وأما الواصلون فصنف رابع تجلى لهم أن هذا المطاع أيضاً موصوف بصفة تنافي الوحدانية المحضة والكمال البالغ لسر لا يحتمل هذا الكتاب كشفه فإن نسبة هذا المطاع نسبة الشمس في الأنوار الحقيقية فتوجهوا من الذي يحرك السموات ومن الذي أمر بتحريكها إلى الذي فطر السموات وفطر الآمر بتحريكها فوصلوا إلى موجود منزه عن كل ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم إذ وجدوه منزهاً مقدساً عن جميع ما وصفناه من قبل ثم هؤلاء انقسموا فمنهم من احترق منه جميع ما أدركه بصره وانمحق وتلاشى لكن بقي هو ملاحظاً للجمال والقدس وملاحظاً ذاته في جماله الذي ناله بالوصول إلى الحضرة الإلهية وانمحقت منه المبصرات دون المبصر وجاوز هؤلاء طائفة هم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه وغشيهم سلطان الجلال فانمحقوا وتلاشوا في ذواتهم فلم يبق لهم لحاظ إلى أنفسهم لفنائهم عن أنفسهم ولم يبق إلا الواحد الحق وصار معنى قوله تعالى كل شيء هالك إلا وجهه لهم ذوقاً وحالاً وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول وذكرنا أنهم كيف أطلقوا الاتحاد وكيف ظنوه وهذا نهاية الواصلين ومنهم من لم يتدرج في الترقي والعروج على التفصيل الذي ذكرناه ولم يطل عليهم الطريق فسبقوا في أول وهلة إلى معرفة القدس وتنزيه الربوبية عن كل ما يجب تنزيهه عنه وغلب عليهم أولاً ما غلب على الآخرين آخراً وهجم عليهم التجلي دفعة فأحرقت سبحات وجهه جميع ما يمكن أن يدركه بصر حسي وبصيرة عقلية ويشبه أن يكون الأول طريق الخليل والثاني طريق الحبيب والله أعلم بأسرار أقدامهما وأنوار مقامهما فهذه إشارة إلى أصناف المحجوبين ولا يبعد أن يبلغ عددهم إذا فصلت المقامات وتتبعت حجب السالكين سبعين ألفاً لكن إذا فتشت لا تجد واحداً منهم خارجاً عن الأقسام التي حصرناها فإنهم إنما يحجبون بصفاتهم البشرية أو بالحس أو بالخيال أو بمقايسة العقل أو بالنور المحض كما سبق فهذا ما حضرنا في الوقت في جواب هذه الأسئلة مع أن السؤال وقع والفكر مستغرق والخاطر متشعب والهم إلى غير هذا الفن منصرف ومقترحي عليك أن تسأل الله أن يعفو عما جرى به القلم أو زلت به القدم فإن خوض غمرات الأسرار الإلهية خطير واستكشاف الأنوار الإلهية من وراء الحجب البشرية عسير والله هو الميسر لكل عسير وهو نعم المولى ونعم النصير

تم على يد الفقير المحتاج إلى عفو ربه مصطفى ... السلطان الغازي ...

... دامت محفوظة

الصفحة الأخيرة من مخطوطة المكتبة السليمانية في تركيا

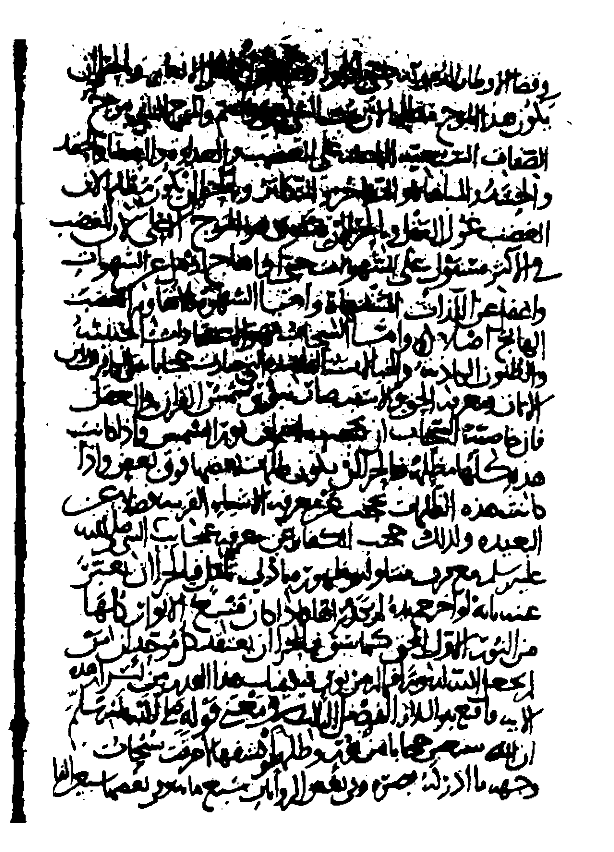


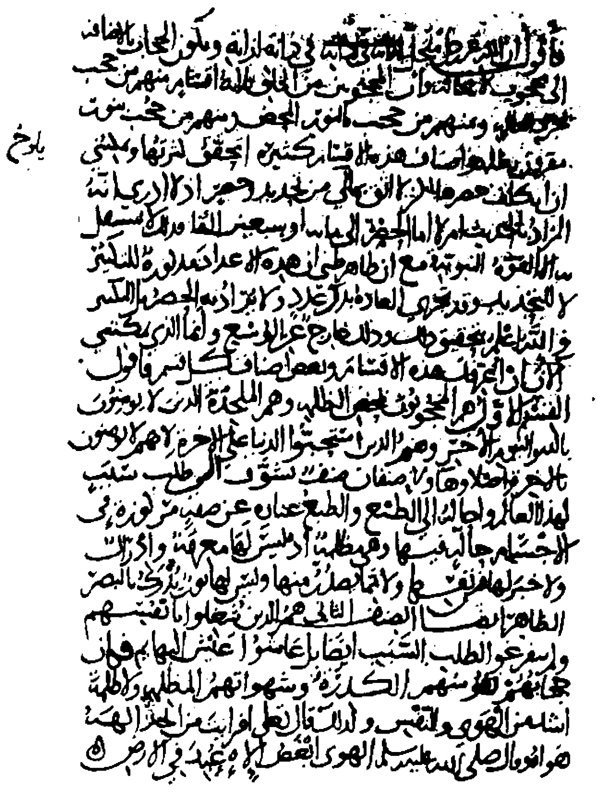
بسم الله الرحمن الرحيم عونك اللهم
قال الامام ابو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي رحمه الله
الحمد لله فائض الانوار وفاتح الابصار وكاشف الاسرار
ورافع الاستار والصلاة على رسوله محمد نور الانوار وسيد
الابرار وحبيب الجبار وبشير الغفار ونذير القهار
وقامع الكفار وفاضح الفجار وعلى اله واصحابه الطيبين
الطاهرين الاخيار اما بعد فقد سألتني ايها الاخ الكريم
قيضك الله لطلب السعادة الكبرى ورشحك
للعروج الى الذروة العليا وكحل بنور الحقيقة بصيرتك
ونقى عما سوى الحق سريرتك ان ابث اليك اسرار الانوار
الالهية مقرونة بما يشير اليه ظواهر الايات المتلوة
والاخبار المروية مثل قوله تعالى الله نور السموات والارض
ومعنى تمثيله ذلك بالمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت
والشجرة مع قوله صلى الله عليه وسلم ان لله سبعين حجابا من
نور وظلمة وانه لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه
كل ما ادركه بصره ولقد ارتقيت بسؤالك مرقى
شعثا تنخفض دون اعاليه اعين الناظرين وقرعت بابا مغلقا
لا يفتح الا للعلماء الراسخين ثم ليس كل سر يكشف ويفشى
ولا كل حقيقة تعرض وتجلى بل صدور الاحرار قبور الاسرار
ولقد قال بعض العارفين افشاء سر الربوبية كفر
بل قال سيد الاولين والاخرين صلى الله عليه وسلم ان من العلم

كهيئة المكنون لا يعلمه الا العلماء بالله فاذا نطقوا به انكره
الا اهل الغرة بالله [illegible]
[illegible]
الفصل الاول في بيان ان النور الحق هو الله تعالى
وان اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له
[illegible]

AUB

الصفحة الأولى من مخطوطة .A.U.B





الصفحة التي تثبت أن الفصل الثالث من صلب الكتاب

وبصيرة عقلية ونسبة ان يكون الاول طريق الخليل والثاني طريق الحبيب
صلوات الله عليهما والله اعلم باسرار اقدامهما وانوار مقامهما
فهذه اشارة الى اصناف المحجوبين ولا يبعد ان يبلغ عددهم
اذا فصلت المقامات وتتبع حجب السالكين سبعين الفا ولكن
اذا فتشت لا تجد واحدا منها خارجا عن الاقسام التي حصرناها
فانهم انما يحجبون بصفاتهم البشرية او بالحس او بالخيال
او بمقايسة العقل او بالنور المحض كما سبق فهذا
ما حضرني في هذا الوقت من جواب هذه الاسئلة مع ان السؤال
صادفني والفكر متقسم والخاطر متشعب والهم الى
غير هذا الفن منصرف ومصيرجي علينا ان نسأل الله تعالى
العفو عما طغى به القلم او زلت به القدم فان خوض غمرة
الاسرار الالهية خطير واستكشاف الانوار الالهية من
من وراء الحجب البشرية عسير غير يسير والسلام اهـ
اخر كتاب مشكاة الانوار والحمد لله حق حمده
وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه
وهو حسبنا ونعم الوكيل
وكان الفراغ من نسخه محمد بن علي ... محمد بن عمر الاهوازي ليلة السبت
التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة احدى [illegible]

الصفحة الأخيرة من مخطوطة الـA.U.B.

اعلم أنه تعالى ذكر مثلين: **أحدهما** في بيان أن دلائل الإيمان في غاية الظهور **الثاني** في بيان أن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء.

أما المثل الأول فهو قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[1].

اعلم أن الكلام في هذه الآية مرتب على فصول:

الفصل الأول

في إطلاق اسم النور على الله تعالى

اعلم أن لفظ النور موضوع في اللغة لهذه الكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على الأرض والجدران وغيرهما، وهذه الكيفية يستحيل أن تكون إلٰهاً لوجوه:

أحدها: أن هذه الكيفبة إن كانت عبارة عن الجسم، كان الدليل الدال

---

(١) سورة النور الآية: ٣٥.

على حدوث الجسم دالاً على حدوثها، وإن كانت عرضاً، فمتى ثبت حدوث جميع الأعراض القائمة به، ولكن هذه المقدمة إنما تثبت بعد إقامة الدلالة على أن الحلول على الله تعالى محال.

وثانيها: أنَّا سواء قُلنا: النور جسم، أو أمر حالٌ في الجسم فهو منقسم، لأنه إن كان جسماً فلا شك في أنه مُنقسم: وإن كان حالاً فيه، فالحالُ في المنقسم منقسم، وعلى التقديرين فالنور منقسم وكل منقسم فإنه يفتقر في تحققه إلى تحقق أجزائه، وكل واحد من أجزائه غيره، وكل مفتقر فهو في تحققه مفتقر إلى غيره، والمفتقر إلى الغير ممكن لذاته محدَث بغيره، فالنُّور محدَث فلا يكون إلَهاً.

وثالثها: أنَّ هذا النور المحسوس لو كان هو الله لوجب أن لا يزول هذا النور لامتناع الزَّوال على الله تعالى.

ورابعها: أنَّ هذا النور المحسوس يقع بطلوع الشمس والكواكب. وذلك على الله محال.

وخامسها: أن هذه الأنوار لو كانت أزلية، لكانت إما أن تكون متحركة أو ساكنة، لا جائز أن تكون متحركة، لأن الحركة معناها الانتقال من مكان إلى مكان، فالحركة مسبوقة بالحصول في المكان الأول. والأزلي يمتنع أن يكون مسبوقاً بالغير فالحركة الأزلية محال. ولا جائز أن تكون ساكنة لأن السكون لو كان أزلياً لكان ممتنع الزوال، لكن السكون جائز الزوال، لأنَّا نرى الأنوار تنتقل من مكان إلى مكان، فدل ذلك على حدوث الأنوار.

وسادسها: أنَّ النُّور إما أن يكون جسماً أو كيفية قائمة بالجسم، والأول مُحال لأنَّا قد نعقل الجسم جسماً مع الذهول عن كونه نيراً، ولأن الجسم قد يستنير بعد أن كان مظلماً فثبت الثاني لكن الكيفية القائمة بالجسم محتاجة إلى الجسم، والمحتاج إلى الغير لا يكون إلَهاً، وبمجموع هذه

الدلائل يبطل قول المانوية[1] الذين يعتقدون أن الإلّه سبحانه هو النور الأعظم.

وأما المجسِّمة[2] المعترفون بصحة القرآن فيحتج على فساد قولهم بوجهين:

الأول: قولَه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ولو كان نوراً لبطل ذلك لأن الأنوار كلها متماثلة.

الثاني: أنَّ قولَهُ تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ صريحٌ في أنه ليس ذاته نفس النور بل النور مضاف إليه. وكذا قوله ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ فإن قيل قوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ﴾ يقتضي ظاهره أنه في ذاته نور. وقوله: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ يقتضي أن لا يكون هو في ذاته نوراً وبينهما تناقض، قلنا: نظير هذه الآية قولك زيد كرم وجود، ثم تقول: ينعش الناس بكرمه وجوده، وعلى هذا الطريق لا تناقض.

الثالث: قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[3] وذلك صريح في أنَّ ماهية النور مجعولة لله تعالى فيستحيل أن يكون الإلّه نوراً، فثبت أنه لا بد من التأويل.

[أقوال العلماء]

والعلماء ذكروا فيه وجوهاً:

أحدها: أن النور سبب للظهور والهداية، لما شاركت النور في هذا النور في هذا المعنى، صح إطلاق اسم النور على الهداية وهو كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[4].

---

(١) انظر ص هامش:
(٢) أنظر ص هامش:
(٣) سورة الأنعام، الآية: ١.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

وقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً﴾[1] وقال: ﴿وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[2]، فقوله: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3] أي ذو نور السموات والأرض، والنور: هو الهداية، ولا تحصل إلا لأهل السموات، والحاصل أنَّ المراد: الله هادي أهل السموات والأرض، وهو قول ابن عباس، والأكثرين رضي الله عنهم.

وثانيها: المراد أنه مدبِّر السموات والأرض بحكمة بالغة وحجة نيرة فوصف نفسه بذلك كما يوصف الرئيس العالم بأنه نور البلد، فإنه إذا كان مدبرهم تدبيراً حسناً فهو لهم كالنور الذي يهتدي به إلى مسالك الطرق، قال جرير:

وَأَنْتَ لنَا نُورٌ وَغَيْثٌ وَعِصْمَةٌ

وهذا اختيار الأصمِّ[4] والزجاج[5].

وثالثها: المراد ناظم السموات والأرض على الترتيب الأحسن، فإنه قد يعبَّر بالنور على النظام، يقال ما أرى لهذا الأمر نوراً.

ورابعها: معناه منوِّر السموات والأرض، ثم ذكروا في هذا القول ثلاثة أوجه: **أحدها**: أنه منور السماء بالملائكة والأرض بالأنبياء **والثاني**: منورها بالشمس والقمر والكواكب **والثالث**: أنه زين السماء بالشمس والقمر والكواكب، وزين الأرض بالأنبياء والعلماء، وهو مروي عن أبي بن كعب[6]

---

(١) سورة الأنعام الآية: ١٢٢.

(٢) سورة الشورى الآية: ٥٢.

(٣) سورة النور الآية: ٣٥.

(٤) هو محمد بن يعقوب، من المحدثين العلماء توفي سنة ٣٤٦ (تذكرة الحفاظ ٣/ ٧٣).

(٥) هو ابراهيم بن السرِّي، أبو إسحاق الزجاج، من علماء اللغة والنحو توفي سنة ٣١١ هـ (تاريخ بغداد ٦/ ٨٩).

(٦) هو الصحابي الجليل، توفي سنة ٢١ هـ (حلية الأولياء ١/ ٢٥٠).

والحسن[1] وأبي العالية[2] والأقرب هو القول الأول لأن قوله في آخر الآية ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يدل على أن المراد بالنور الهداية إلى العلم والعمل.

مناقشة موضوع الغزالي

واعلم أن الشيخ الغزالي رحمه الله صنف في تفسير هذه الآية الكتاب المسمى «بمشكاة الأنوار»، وزعم أن الله نور في الحقيقة بل ليس النور إلا هو، وأنا أنقل محصل ما ذكره مع زوائد كثيرة تقوي كلامه ثم ننظر في صحته وفساده على سبيل الإنصاف فقال:

«اسم النور إنما وضع للكيفية الفائضة من الشمس والقمر والنار على ظواهر هذه الأجسام الكثيفة، فيقال استنارت الأرض ووقع نور الشمس على الثوب ونور السراج على الحائط، ومعلوم أن هذه الكيفية إنما اختصت بالفضيلة والشرف لأن المرئيات تصير بسببها ظاهرة منجلية، ثم من المعلوم أنه كما يتوقف إدراك هذه المرئيات على كونها مستنيرة» فكذا يتوقف على وجود العين الباصرة إذ المرئيات بعد استنارتها لا تكون ظاهرة في حق العميان، فقد ساوى الروح الباصرة النور الظاهرة في كونه ركناً لا بد منه للظهور، ثم يرجح عليه في أن الروح الباصرة هي المدركة وبها الإدراك، وأما النور الخارج فليس بمدرك ولا به الإدراك بل عنده الإدراك، فكان وصف الإظهار بالنور الباصر، أحق منه بالنور المبصر، فلا جرم أطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة، فقالوا في الخفاش: إن نور عينه ضعيف، وفي الأعمش: إنه ضعف نوره بصره. وفي الأعمى إنه فقد نور البصر.

---

(١) هو الحسن بن يسار، المعروف بالحسن البصري، توفي سنة ١١٠ هـ (حلية الأولياء ٢/ ١٣١).

(٢) هو رُفيع بن مهران، أبو العالية الرياحي، توفي سنة ٩٠ هـ أو ٩٣ هـ. (تقريب التهذيب ١/ ٢٥٢).

إذا ثبت هذا فنقول إن للإنسان بصراً وبصيرة، فالبصر: هو العين الظاهرة المدركة للأضواء والألوان، والبصيرة: هي القوة العاقلة، وكل واحد من الإدراكين يقتضي ظهور المدرك، فكل واحد من الإدراكين نور إلا أنهم عددوا لنور العين عيوباً لم يحصل شيء منها في نور العقل.

والغزالي رحمه الله ذكر منها سبعة، ونحن جعلناها عشرين:

الأول: أن القوة الباصرة لا تدرك نفسها، ولا تدرك إدراكها، ولا تدرك آلتها، أما أنها لا تدرك نفسها ولا تدرك إدراكها، فلأن القوة الباصرة وإدراك القوة الباصرة ليسا من الأمور المبصرة بالعين الباصرة، وأما آلتها فهي العين، والقوة الباصرة بالعين لا تدرك العين، وأما القوة العاقلة فإنها تدرك نفسها وتدرك إدراكها، وتدرك آلتها في الإدراك وهي القلب والدماغ، فثبتَ أنَّ نورَ العقل أكمل من نور البصر.

القلب مدرك الكليات والبصر مدرك الجزئيات

الثاني: أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات، والقوة العاقلة تدركها، ومدرك الكليات وهو القلب أشرف من مدرك الجزئيات، أما أن القوة الباصرة لا تدرك الكليات فلأن القوة الباصرة لو أدركت كل ما في الوجود فهي ما أدركت الكل، لأنَّ الكلَّ عبارة عن كل ما يمكن دخوله في الوجود في الماضي والحاضر والمستقبل، وأما أن القوة العاقلة تدرك الكليات فلأنا نعرف أن الأشخاص الإنسانية مشتركة في الإنسانية ومتمايزة بخصوصياتها، وما به المشاركة غير ما به الممايزة، فالإنسانية من حيث هي إنسانية أمر مُغاير لهذه الشخصيات فقد عقلنا الماهية الكلية، وأما أن إدراك الكليات أشرف فلأن إدراك الكليات ممتنع التغير، وإدراك الجزئيات واجب التغير، ولأن إدراك الكلي يتضمن إدراك الجزئيات الواقعة تحته، لأن ما ثبت للماهية ثبت لجميع أفرادها ولا ينعكس، فثبت أن الإدراك العقلي أشرف.

الثالث: الإدراك الحسي غير منتج والإدراك العقلي منتج فوجب أن يكون العقل أشرف، أما كون الإدراك الحسي غير منتج فلأن من أحسّ بشيء لا يكون ذلك الإحساس سبباً لحصول إحساس آخر له، بل لو استعمل له الحس مرة أخرى لأحس به مرة أخرى ولكن ذلك لا يكون إنتاج الإحساس لإحساس آخر، وأما أن الإدراك العقلي منتج فلأنا إذا عقلنا أموراً ثم ركبناها في عقولنا توصلنا بتركيبها إلى اكتساب علوم أخرى، وهكذا كل تعقل حاصل فإنه يمكن التوسل به إلى تحصيل تعقل آخر إلى ما لا نهاية له، فثبت أن الإدراك العقلي أشرف.

الرابع: الإدراك الحسي لا يتسع للأمور الكثيرة والإدراك النقلي، يتسع لها فوجب أن يكون الإدراك العقلي أشرف. أما أن الإدراك الحسي لا يتسع لها فلأن البصر إذا توالى عليه ألوان كثيرة عجز عن تمييزها، فأدرك لوناً كأنه حاصل من اختلاط تلك الألوان [و] السمع إذا توالت عليه كلمات كثيرة التبست عليه تلك الكلمات ولم يحصل التمييز، وأما أن الإدراك العقلي متسع لها فلأن كل من كان تحصيله للعلوم أكثر كانت قدرته على كسب الجديد أسهل، وبالعكس وذلك يوجب الحكم بأن الإدراك العقلي أشرف.

الخامس: القوة الحسية إذا أدركت المحسوسات القوية ففي ذلك الوقت تعجز عن إدراك الضعيفة، فإن من سمع الصوت الشديد ففي تلك الحالة لا يمكنه أن يسمع الصوت الضعيف، والقوة العقلية لا يشغلها معقول عن معقول.

السادس: القوى الحسية تضعف بعد الأربعين، وتضعف عند كثرة الأفكار التي هي موجبة لاستيلاء النفس على البدن الذي هو موجب لخراب البدن، والقوى العقلية تقوى بعد الأربعين، وتقوى عند كثرة الأفكار الموجبة لخراب البدن، فدلّ ذلك على استغناء القوة العقلية عن هذه الآلات، واحتياج القوى الحسية إليها.

السابع: القوة الباصرة لا تدرك المرئي مع القرب القريب ولا مع البعد البعيد، والقوة العقلية لا يختلف حالها بحسب القرب والبعد، فإنها تترقى إلى ما فوق العرش وتنزل إلى ما تحت الثرى في أقل من لحظة واحدة، بل تدرك ذات الله وصفاته مع كونه منزهاً عن القرب والبعد والجهة فكانت القوة العقلية أشرف.

الثامن: القوة الحسية لا تدرك من الأشياء إلا ظواهرها فإذا أدركت الإنسان فهي في الحقيقة ما أدركت الإنسان لأنها ما أدركت إلا السطح الظاهر من جسمه، وإلا اللون القائم بذلك السطح، وبالاتفاق فليس الإنسان عبارة عن مجرد السطح واللون فالقوة الباصرة عاجزة عن النفوذ في الباطن، أما القوة العاقلة فإن باطن الأشياء وظاهرها بالنسبة إليها على السواء فإنها تدرك البواطن والظواهر، وتغوص فيها وفي أجزائها، فكانت القوة العاقلة نوراً بالنسبة إلى الباطن والظاهر، أما القوة الباصرة فهي بالنسبة إلى الظاهر نور وبالنسبة إلى الباطن ظلمة، فكانت القوة العاقلة أشرف من القوة الباصرة.

التاسع: أن مدرك القوة العاقلة هو الله تعالى وجميع أفعاله، ومدرك القوة الباصرة هو الألوان والأشكال، فوجب أن تكون نسبة شرف القوة العاقلة إلى شرف القوة الباصرة كنسبة شرف ذات الله تعالى إلى شرف الألوان والأشكال.

العاشر: القوة العاقلة تدرك جميع الموجودات والمعدومات والماهيات التي هي معروضات الموجودات والمعدومات، ولذلك فإن أول حكمه أن الوجود والعدم لا يجتمعان ولا يرتفعان، وذلك مسبوق لا محالة بتصور مسمى الوجود، ومسمى العدم، فكأنه بهذين التصورين قد أحاط بجميع الأمور من بعض الوجوه. وأما القوة الباصرة فإنها لا تدرك إلا الأضواء والألوان، وهما من أخسّ عوارض الأجسام، والأجسام أخس من الجواهر

الروحانية، فكان متعلق القوة الباصرة أخس الموجودات. وأما متعلق القوة العاقلة فهو جميع الموجودات والمعدومات، فكانت القوة العاقلة أشرف الحادي عمر القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير وتكثير الواحد، والقوة الباصرة لا تقوى على ذلك. أما أن القوة العاقلة تقوى على توحيد الكثير، فذاك لأنها تضم الجنس إلى الفصل فيحدث منهما طبيعة نوعية واحدة، وأما أنها تقوى على تكثير الواحد فلأنها تأخذ الإنسان وهي ماهية واحدة فتقسمها إلى مفهوماتها وإلى عوارضها اللازمة وعوارضها المفارقة، ثم تقسم مقوماته إلى الجنس وجنس الجنس، والفصل وفصل الفصل، وجنس الفصل وفصل الجنس، إلى سائر الأجزاء المقومة التي لا تعد من الأجناس ولا من الفصول، ثم لا تزال تأتي بهذا لتقسيم في كل واحد من هذه الأقسام حتى تنتهي من تلك المركبات إلى البسائط الحقيقية، ثم يعتبر في العوارض اللازمة أن تلك العوارض مفردة أو مركبة ولازمة بوسائط أو بوسط، أو تغير وسط، فالقوة العاقلة كأنها نفذت في أعماق الماهيات، وتغلغلت فيها، وميَّزت كل واحد من أجزائها عن صاحبه، وأنزلت كل واحد منها في المكان اللائق به. فأما القوة الباصرة فلا تطلع على أحوال الماهيات، بل لا ترى إلا أمراً واحداً ولا تدري ما هو وكيف هو، فظهر أن القوة العاقلة أشرف.

الثاني عشر: القوة العاقلة تقوى على إدراكات غير متناهيـة، والقوة الحاسة لا تقوى على ذلك.

بيان الأول من وجوه:

الأول: القوة العاقلة يمكنها أن تتوسل بالمعارف الحاضرة إلى استنتاج المجهولات، ثم إنها تجعل تلك النتائج مقدمات في نتائج أخرى لا إلى نهاية، وقد عرفت أن القوة الحاسة لا تقوى على الاستنتاج أصلاً. **الثاني**: أن القوة العاقلة تقوى على تعقل مراتب الأعداد ولا نهاية لها. **الثالث**: أن القوة العاقلة يمكنها أن تعقل نفسها، وأن تعقل أنها عقلت وكذا إلى غير

النهاية. **الرابع**: النسب والإضافات غير متناهية، وهي معقولة لا محسوسة، فظهر أن القوة العاقلة أشرف.

الثالث عشر: الإنسان بقوته العاقلة يشارك الله تعالى في إدراك الحقائق، وبقوته الحاسة يشارك البهائم، والنسبة معتبرة فكانت القوة العاقلة أشرف.

الرابع عشر: القوة العاقلة غنية في إدراكها العقلي عن وجود المعقول في الخارج، والقوة الحاسة محتاجة في إدراكها الحسي إلى وجود المحسوس في الخارج، والغني أشرف من المحتاج.

الخامس عشر: هذه الموجودات الخارجية ممكنة لذواتها وأنها محتاجة إلى الفاعل، والفاعل لا يمكنه الإيجاد على سبيل الاتقان إلا بعد تقدم العلم، فإذن وجود هذه الأشياء في الخارج تابع للإدراك العقلي، وأما الإحساس بها فلا شك أنه تابع لوجودها في الخارج، فإذن القوة الحساسة تبع لتبع القوة العاقلة.

السادس عشر: القوة العاقلة غير محتاجة في العقل إلى الآلات بدليل أن الإنسان لو اختلت حواسه الخمس، فإنه يعقل أن الواحد نصف الاثنين، وأن الأشياء المساوية لشيء واحد متساوية. وأما القوة الحساسة فإنها محتاجة إلى آلات كثيرة، والغني أفضل من المحتاج.

السابع عشر: الإدراك البصري لا يحصل إلا للشيء الذي في الجهات، ثم إنه غير متصرف في كل الجهات، بل لا يتناول إلا المقابل أو ما هو في حكم المقابل، واحترزنا بقولنا: في حكم المقابل عن أمور أربعة: **الأول**: العرض فإنه ليس بمقابل لأنه ليس في المكان، ولكنه في حكم المقابل، لأجل كونه قائماً بالجسم الذي هو مقابل. **الثاني**: رؤية الوجه في المرآة، فإن الشعاع يخرج من العين إلى المرآة، ثم يرتد منها إلى الوجه فيصير الوجه مرئياً، وهو من هذا الاعتبار كالمقابل لنفسه. **الثالث**:

رؤية الإنسان قفاه إذا جعل إحدى المرآتين محاذية لوجهه والأخرى لقفاه.
والرابع: رؤية ما لا يقابل بسبب انعطاف الشعاع في الرطوبات كما هو مشروح في كتب المناظر[1] وأما القوة العاقلة فإنها مبرأة عن الجهات، فإنها تعقل الجهة والجهة ليست في الجهة، ولذلك تعقل أن الشيء إما أن يكون في الجهة، وإما أن لا يكون في الجهة، وهذا الترديد لا يصح إلا بعد تعقل معنى قولنا ليس في الجهة.

الثامن عشر: القوة الباصرة تعجز عند الحجاب، وأما القوة العاقلة فإنها لا يحجبها شيء أصلاً فكانت أشرف.

التاسع عشر: القوة العاقلة كالأمير، والحاسة كالخادم، والأمير أشرف من الخادم، وتقرير الفرق بين الأمارة والخدمة مشهور.

العشرون: القوة الباصرة قد تغلط كثيراً، فإنها قد تدرك المتحرك ساكناً وبالعكس، كالجالس في السفينة، فإنه قد يدرك السفينة المتحركة ساكنة والشط الساكن متحركاً، ولولا العقل لما تميز خطأ البصر عن صوابه، والعقل حاكم والحس محكوم.

فثبت بما ذكرنا أن الإدراك العقلي أشرف من الإدراك البصري، وكل واحد من الإدراكين يقتضي الظهور الذي هو أشرف خواص النور، فكان الإدراك العقلي أولى بكونه نوراً من الإدراك البصري، وإذا ثبت هذا فنقول:

هذه الأنوار العقلية قسمان:

أحدهما واجب الحصول عند سلامة الأحوال وهي التعقلات الفطرية.

والثاني: ما يكون مكتسباً، وهي التعقلات النظرية. أما الفطرية فليست هي من لوازم جوهر الإنسان لأنه حال الطفولية لم يكن عالماً البتة، فهذه

(١) يريد بالمناظر المرايا.

الأنوار الفطرية إنما حصلت بعد أن لم تكن فلا بد لها من سبب، وأما النظريات فمعلوم أن الفطرة الإنسانية قد يعتريها الزيغ في الأكثر، وإذا كان كذلك فلا بد من هادٍ مرشدٍ ولا مرشد فوق كلام الله تعالى وفوق إرشاد الأنبياء، فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل بمنزلة نور الشمس عند العين الباصرة، إذ به يتم الابصار، فبالحري أن يسمى القرآن نوراً كما يسمى نور الشمس نوراً، فنور القرآن يشبه نور الشمس، ونور العقل يشبه نور العين، وبهذا يظهر معنى قوله: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾(١) وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُم﴾(٢) ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾(٣) وإذا ثبت أن بيان الرسول أقوى من نور الشمس وجب أن تكون نفسه القدسية أعظم في النورانية من الشمس، وكما أن الشمس في عالم الأجسام تفيد النور لغيره ولا تستفيده من غيره، فكذا نفس النبي صلى الله عليه وسلم تفيد الأنوار العقلية لسائر الأنفس البشرية، ولا تستفيد الأنوار العقلية من شيء من الأنفس البشرية، فلذلك وصف الله تعالى الشمس بأنها سراج حيث قال: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجاً وَقَمَراً مُنِيراً﴾(٤) ووصف محمداً صلى الله عليه وسلم بأنه سراج منير.

إذا عرفتَ هذا فنقول:

ثبت بالشواهد العقلية والنقلية أن الأنوار الحاصلة في أرواح الأنبياء مُقتبسة من الأنوار الحاصلة في أرواح الملائكة، قال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ المَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾(٥) وقال: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ﴾(٦) وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ القُدُسِ مِنْ رَبِّكَ

(١) سورة التغابن، الآية: ٨.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٤.
(٣) سورة النساء، الآية: ١٧٤.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٦١.
(٥) سورة النحل، الآية: ٢.
(٦) سورة الشعراء، الآية: ١٩٣.

بِالْحَقِّ﴾[1] وقال تعالى: **﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ القُوَى﴾**[2] والوحي لا يكونُ إلاَّ بواسطةِ الملائكةِ فإذا جَعَلنا أرواحَ الأنبياء أعظم استنارة من الشمس، فأرواح الملائكة التي هي كالمعادن لأنوار عقول الأنبياء لا بد وأن تكونَ أعظم من أنوار أرواح الأنبياء، لأن السَّبب لا بد وأن يكون أقوى من المسبب.

ثم نقول: ثبت أيضاً بالشواهد العقلية والنقلية أن الأرواح السماوية مختلفة، فبعضها مستفيدة وبعضها مفيدة، قال تعالى في وصف جبريل عليه السلام: **﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾**[3] وإذا كان هو مطاع الملائكة، فالمطيعون لا بد وأن يكونوا تحت أمره وقال: **﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ﴾**[4]وإذا ثبت هذا فالمفيد أولى بأنْ يكون نوراً من المستفيد للعلة المذكورة، ولمراتب الأنوار في عالم الأرواح مثال، وهو أنَّ ضوء الشمس إذا وصل إلى القمر، ثم دخل في كوة بيت ووقع على مرآة منصوبة على حائط ثم انعكس منها إلى حائط آخر نصب عليه مرآة أخرى، ثم انعكس منها إلى طست مملوء من الماء موضوع على الأرض انعكس منه إلى سقف البيت، فالنور الأعظم: في الشمس التي هي المعدن، وثانياً: في القمر، **وثالثاً**: ما وصل إلى المرآة الأولى، **ورابعاً**: ما وصل إلى المرآة الثانية، **وخامساً**: ما وصل إلى الماء، **وسادساً**: ما وصل إلى السقف، وكل ما كان أقرب إلى المنبع الأول فإنه أقوى مما هو أبعد منه، فكذا الأنوار السماوية لما كانت مرتبة لا جرم كان نور المفيد أشد إشراقاً من نور المستفيد، ثم تلك الأنوار لا تزال تكون مترقية حتى تنتهي إلى النور الأعظم، والروح الذي هو أعظم الأرواح منزلة عند الله الذي هو المراد من قوله سبحانه: **﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾**[5] ثم نقول: لا شك أن هذه الأنوار الحسية إن كانت سفلية كانت

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٢.

(٢) سورة النجم، الآية: ٤، ٥.

(٣) سورة التكوير، الآية: ٢١.

(٤) سورة الصافات، الآية: ١٦٤.

(٥) سورة النبأ، الآية: ٣٨.

كأنوار النيران، أو علوية كانت كأنوار الشمس والقمر والكواكب، وكذا الأنوار العقلية سفلية كانت كالأرواح السفلية التي للأنبياء والأولياء، أو علوية كالأرواح العلوية التي هي الملائكة، فإنها بأسرها ممكنة لذواتها، والممكن لذاته يستحق العدم من ذاته والوجود من غيره، والعدم هو الظلمة الحاصلة، والوجود هو النور، فكل ما سوى الله مظلم لذاته مستنير بإنارة الله تعالى، وكذا جميع معارفها بعد وجودها حاصل من وجود الله تعالى، فالْحق سبحانه هو الذي أظهرها بالوجود، بعد أن كانت في ظلمات العدم وأفاض عليها أنوار المعارف بعد أن كانت في ظلمات الجهالة، فلا ظهور لشيء من الأشياء إلاَّ بإظهاره، وخاصة النور إعطاء الإظهار والتجلي والانكشاف، وعند هذا يظهر أن **النُّور المطلق**: هو الله سبحانه، وأن إطلاق النور على غيره مجاز إذ كل ما سوى الله، فإنه من حيث هو هو ظلمة محضة لأنه من حيث أنه هو عدم محض، بل الأنوار إذا نظرنا إليها من حيث هي هي فهي ظلمات، لأنها من حيث هي هي ممكنات، والممكن من حيث هو هو معدوم، والمعدوم مظلم. فالنور إذا نظر إليه من حيث هو هو ظلمة، فأما إذا التفت إليها من حيث أن الحق سبحانه أفاض عليها نور الوجود فبهذا الاعتبار صارت أنواراً. فثبت أنه سبحانه هو النور فثبت أنه سبحانه هو النور. وأن كل ما سواه فليس بنور إلا على سبيل المجاز.

ثم إنه [أي: الإمام الغزالي] رحمه الله تكلم بعد هذا في أمرين:

الأول: أنَّه سبحانه لِمَ أضاف النور إلى السموات والأرض؟

وأجاب: فقال: «قد عرفتَ أن السمٰوات والأرض مشحونة بالأنوار العقلية، والأنوار الحسية، أما الحسية فما يشاهد في السمٰوات من الكواكب والشمس والقمر، وما يشاهد في الأرض من الأشعة المنبسطة على سطوح الأجسام حتى ظهرت به الألوان المختلفة، ولولاها لم يكن للألوان ظهور بل وجود، وأما الأنوار العقلية فالعالم الأعلى مشحون بها، وهي جواهر الملائكة، والعالم الأسفل مشحون بها وهي القوى النباتية والحيوانية

والإنسانية، وبالنور الإنساني السفلي ظهر نظام عالم السّفل كما بالنور الملكي ظهر نظام عالم العلو، وهو المعنى بقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾[1] وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ﴾[2] فإذا عرفتَ هذا، عرفْت أنَّ العالم بأسره مشحون بالأنوار الظاهرة البصرية، والباطنية العقلية، ثم عرفتَ أن السفلية فائضة بعضها من بعض فيضان النور من السراج، فإن السراج هو الروح النبوي، ثم أن الأنوار النبوية القدسية مقتبسة من الأرواح العلوية اقتباس السراج من النور، وأن العلويات مقتبسة بعضها من بعض، وأنَّ بينها ترتيباً في المقامات، ثم ترتقي جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول، وأنَّ ذلك هو الله وحده لا شريك له، فإذن الكل نوره فلهذا قال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾.

السؤال الثاني: فإذا كان الله النور فلم احتيج في إثباته إلى البرهان؟

أجاب فقال:

إن معنى كونه نور السمٰوات والأرض معروف بالنسبة إلى النور الظاهر البصري؛ فإذا رأيت خضرة الربيع في ضياء النهار فلست تشك في أنك ترى الألوان، فربَّما ظننتَ أنَّك لا ترى مع الألوان غيرها، فإنَّك تقولُ: لستُ أرىٰ مع الخضرةِ غير الخضرةِ، إلَّا أنك عند غروب الشمس تُدرك تفرقة ضرورية بين اللون حال وقوع الضوء عليه وحال عدم وقوعه عليه، فلا جَرَم تعرف أن للنور معنى غير اللون يدرك مع الألوان، إلا أنه كان لشدة اتحاده به لا يدرك، ولشدة ظهوره يختفي، وقد يكون الظهور سبب الخفاء، إذا عرفت هذا فاعلم: أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر، فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله ونوره حاصل مع كل شيء لا يفارقه، ولكن بقي هٰهنا تفاوت وهو أن النور الظاهر يتصور أن يغيب بغروب الشمس، ويحجب فحينئذ يظهر أنه غير اللون، وأما النور الإلٰهي الذي به يظهر كل

(١) سورة النور، الآية: ٥٥.

(٢) سورة النمل، الآية: ٦٢.

شيء لا يتصور غيبته بل يستحيل تغيره فيبقى مع الأشياء دائماً، فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة، ولو تصورت غيبته لانهدمت السمٰوات والأرض ولأدرك عنده من التفرقة ما يحصل العلم الضروري به، ولكن لما تساوت الأشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وجود خالقها، وأنَّ كل شيء يسبِّح بحمده لا بعض الأشياء، وفي جميع الأوقات لا في بعض الأوقات ارتفعت التفرقة، وخفي الطريق، إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد، فما لا ضدَّ له ولا تغير له بتشابه أحواله، فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة ظهوره وجلائه، فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره، واحتجب عنهم بإشراق نوره».

واعلم أن هذا الكلام الذي رويناه عن الشيخ الغزالي رحمه الله كلامٌ مستطاب، ولكن يرجع حاصله بعد التحقيق إلى أن معنى كونه سبحانه نوراً أنه خالق للعالم وأنه خالق للقوى الداركة، وهو المعنى من قولنا معنى كونه نور السموات والأرض أنه هادي أهل السمٰوات والأرض، فلا تفاوت بين ما قاله وبين الذي نقلناه عن المفسرين في المعنى، والله أعلم.

الفصل الثاني

في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام «إنَّ للَّهِ سبعينَ حِجاباً مِنْ نُورٍ وظلمةٍ، لَوْ كَشَفَها لأَحْرقَتْ سُبُحاتُ وجْهِهِ كلَّ ما أدْرَكَ بصرُهُ» وفي بعض الروايات: «سبعمائة» وفي بعضها «سبعون ألفاً».

فأقول: لما ثبتَ أن الله سبحانه وتعالى متجلٍّ في ذاته لذاته، كان الحجاب بالإضافة إلى المحجوب لا محالة والمحجوب لا بد وأن يكون محجوباً، إما بحجاب مركب من نور وظلمة، وإما بحجاب مركب من نور فقط، أو بحجاب مركب من ظلمة فقط.

القسم الأول: أما المحجوبون بالظلمة المحضة فهم الذين بلغوا في الاشتغال بالعلائق البدنية إلى حيث لم يلتفت خاطرهم إلى أنه هل يمكن الاستدلال بوجود هذه المحسوسات على وجود واجب الوجود أم لا؟ وذلك لأنك قد عرفت أن ما سوى الله تعالى من حيث هو هو مظلم، وإنما كان مستنيراً من حيث استفاد النور من حضرة الله تعالى، فمن اشتغل بالجسمانيات من حيث هي هي وصار ذلك الاشتغال حائلاً له عن الالتفات إلى جانب النور كان حجابه محضُ الظلمة، ولما كانت أنواع الاشتغال بالعلائق البدنية خارجة عن الحد والحصر فكذا أنواع الحجب الظلمانية خارجة عن الحد والحصر.

القسم الثاني: المحجوبون بالحجب الممزوجة من النور والظلمة.

اعلم أن من نظر إلى هذه المحسوسات فإما أن يعتقد فيها أنها غنية عن المؤثر، أو يعتقد فيها أنها محتاجة، فإن اعتقد أنها غنية فهذا حجاب ممزوج من نور وظلمة، أما النور فلأنه تصور ماهية الاستغناء عن الغير، وذلك من صفات جلال الله تعالى وهو من صفات النور **(وأما الظلمة)** فلأنه اعتقد حصول ذلك الوصف في هذه الأجسام مع أن ذلك الوصف لا يليق بهذا

الوصف وهذا ظلمة، فثبت أن هذا حجاب ممزوج من نور وظلمة، ثم أصناف هذا القسم كثيرة، فإن من الناس من يعتقد أن الممكن غني عن المؤثر، ومنهم من يسلم ذلك لكنه يقول: المؤثر فيها طبائعها أو حركاتها، أو اجتماعها وافتراقها، أو نسبتها إلى حركات الأفلاك، أو إلى محركاتها وكل هؤلاء من هذا القسم.

القسم الثالث: الحجب النورانية المحضة.

واعلم أنه لا سبيل إلى معرفة الحق سبحانه إلا بواسطة تلك الصفات السلبية والإضافية، ولا نهاية لهذه الصفات ولمراتبها، فالعبد لا يزال يكون مترقياً فيها فإن وصل إلى درجة وبقي فيها كان استغراقه في مشاهدة تلك الدرجة حجاباً له عن الترقي إلى ما فوقها، ولما كان لا نهاية لهذه الدرجات كان العبد أبداً في السير والانتقال، وأما حقيقته المخصوصة فهي محتجبة عن الكل فقد أشرنا إلى كيفية مراتب الحجب، وأنت تعرف أنه عليه الصلاة والسلام إنما حصرها في «سبعين ألفاً» تقريباً لا تحديداً فإنها لا نهاية لها في الحقيقة.

الفصل الثالث

في شرح كيفية التمثيل

اعلم أنه لا بد في التشبيه من أمرين: المشبه والمشبه به، واختلف الناس هٰهنا في أنَّ المشبه أي شيء هو؟ وذكروا وجوهاً:

أحدها: وهو قول جمهور المتكلمين، ونصره القاضي[1] أن المراد من الهدى التي هي الآيات البينات، والمعنى أن هداية الله تعالى قد بلغت في الظهور والجلاء إلى أقصى الغايات وصارت في ذلك بمنزلة **المشكاة** التي تكون فيها **زجاجة** صافية. وفي **الزجاجة مصباح** يتقد بزيت بلغ النهاية في الصفاء، فإن قيل: لِمَ شبهه بذلك وقد علمنا أن ضوء الشمس أبلغ من ذلك بكثير، قلنا: إنه سبحانه أراد أن يصف الضوء الكامل الذي يلوح وسط الظلمة لأن الغالب على أوهام الخلق وخيالاتهم إنما هو الشبهات التي هي كالظلمات، وهداية الله تعالى فيما بينها كالضوء الكامل الذي يظهر فيما بين الظلمات، وهذا المقصود لا يحصل من ضوء الشمس لأن ضوءها إذا ظهر امتلأ العالم من النور الخالص، وإذا غاب امتلأ العالم من الظلمة الخالصة فلا جرم كان ذلك المثل هٰهنا أليق وأوفق، واعلم أن الأمور التي اعتبرها الله تعالى في هذا المثال مما توجب كمال الضوء **فأولها**: المصباح لأن المصباح إذا لم يكن في المشكاة تفرَّقت أشعته، أما إذا وضع في المشكاة اجتمعت أشعته فكانت أكثر إنارة، والذي يحقق ذلك أن المصباح إذا كان في بيت صغير فإنه يظهر من ضوئه أكثر مما يظهر في البيت الكبير **وثانيها**: أن المصباح إذا كان في زجاجة صافية فإن الأشعة المنفصلة عن المصباح تنعكس من بعض جوانب الزجاجة إلى البعض لما في الزجاجة من الصفاء والشفافية، وبسبب ذلك يزداد الضوء والنور، والذي يحقق ذلك أن شعاع

(١) القاضي أبي بكر الباقلاني.

الشمس إذا وقع على الزجاجة الصافية تضاعف الضوء الظاهر حتى أنه يظهر فيما يقابله مثل ذلك الضوء، فإن انعكست تلك الأشعة من كل واحد من جوانب الزجاجة إلى الجانب الآخر كثرت الأنوار والأضواء وبلغت النهاية الممكنة **وثالثها**: أن ضوءَ المصباح يختلف بحسب اختلاف ما يتقد به، فإذا كان ذلك الدهن صافياً خالصاً كانت حالته بخلاف حالته إذا كان كدراً، وليس في الأدهان التي توقد ما يظهر فيه من الصفاء مثل الذي يظهر في الزيت فربَّما يبلغ في الصفاء والرقة مبلغ الماء مع زيادة بياض فيه وشعاع يتردد في أجزائه **ورابعها**: أن هذا الزيت يختلف بحسب اختلاف شجرته، فإذا كانت لا شرقية ولا غربية بمعنى أنها كانت بارزة للشمس في كل حالاتها، يكون زيتونها أشد نضجاً، فكان زيته أكثر صفاء، وأقرب إلى أن يتميز صفوه من كدره، لأن زيادة الشمس تؤثر في ذلك، فإذا اجتمعت هذه الأمور الأربعة، وتعاونت صارَ ذلك الضوء خالصاً كاملاً، فيصلح أن يجعل مثلاً لهداية الله تعالى.

وثانيها: أن المراد من النور في قوله ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾ القرآن ويدل عليه قوله تعالى ﴿**قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللهِ نُورٌ**﴾[1] وهو قولُ الحسن، وسفيان بن عيينة، وزيد بن أسلم.

وثالثها: أن المراد هو الرسول لأنه المرشد، ولأنه تعالى قال في وصفه ﴿**وسِرَاجاً مُّنِيراً**﴾[2] وهو قول عطاء، وهذان القولان داخلان في القول الأول، لأن من جملة أنواع الهداية إنزال الكتب وبعثة الرسل. قال تعالى في صفة الكتب ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإيمَانُ**﴾[3] وقال في صفة الرسل ﴿**رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ، لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾[4].



(١) سورة المائدة، الآية: ١٥.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦.

(٣) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

ورابعها: أنَّ المرادَ مِنه ما في قلب المؤمنين من معرفة الله تعالى ومعرفة الشرائع، ويدل عليه أن الله تعالى وصفَ الإيمان بأنَّهُ نورٌ والكفرَ بأنَّه ظُلمة، فقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾[1] وقال تعالى: ﴿لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[2] وحاصله أنه حمل الهدى على الاهتداء.

والمقصود من التمثيل أن إيمان المؤمن قد بلغ في الصفاء عن الشبهات، والامتياز عن ظلمات الضلالات مبلغ السراج المذكور، وهو قول أبيّ بن كعب وابن عباس، قال أبيّ: **مثلُ نورُ المؤمِنِ**، وهكذا كان يقرأ، وقيل أنَّهُ كان يقرأ: **مَثَلُ نورِ مَنْ آمَنَ بِهِ** وقال ابن عباس: **مثل نوره في قلب المؤمن**.

وخامسها: ما ذكره الشيخ الغزالي رحمه الله وهو: أنا بيَّنا أن القوى المدركة أنوار، ومراتب القوى المدركة الإنسانية خمسة: **أحدها: القوة الحساسة**، وهي التي تتلقى ما تورده الحواس الخمس وكأنها أصل الروح الحيواني، وأوله إذ به يصير الحيوان حيواناً وهو موجود للصبي الرضيع **وثانيها: القوة الخيالية** وهي التي تستثبت ما أورده الحواس وتحفظه مخزوناً عندها لتعرضه على القوة العقلية التي فوقها عند الحاجة إليه. **وثالثها: القوة العقلية المدركة** للحقائق الكلية **ورابعها: القوة الفكرية** وهي التي تأخذ المعارف العقلية فتؤلفها تأليفاً فتستنتج من تأليفها علماً بمجهول **وخامسها: القوة القدسية** التي تختص بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض الأولياء، وتتجلى فيها لوائح الغيب وأسرار الملكوت وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[3].

---

(1) سورة الزمر، الآية: ٢٢.

(2) سورة إبراهيم، الآية: ١.

(3) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

وإذا عرفتَ هذه القوى فهي بجملتها أنوار، إذ بها تظهر أصناف الموجودات، وأن هذه المراتب الخمسة يمكن تشبيهها بالأمور الخمسة التي ذكرها الله تعالى وهي: **المشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت**.

أما الأوّل: الروح الحساس فإذا نظرت إلى خاصيته وجدت أنواره خارجة من عدة أثقب كالعينين والأذنين والمنخرين، وأوفق مثال له من عالم الأجسام المشكاة.

وأما الثاني: وهو **الروح الخيالي** فنجد له خواص ثلاثة: **الأولى**: أنه من طينة العالم السفلي الكثيف لأن الشيء المتخيَّل ذو قدر وشكل وحيز، ومن شأن العلائق الجسمانية أن تحجب عن الأنوار العقلية المحضة التي هي التعقلات الكلية المجردة **والثانية**: أن هذا الخيال الكثيف إذا صفا ورقّ وهذب صار موازناً للمعاني العقلية، ومؤدِّياً لأنوارها، وغير حائل عن إشراق نورها، ولذلك فإن المعبر يستدل بالصور الخيالية على المعاني العقلية، كما يستدل بالشمس على الملك، وبالقمر على الوزير، وبمن يختم فروج الناس وأفواههم على أنه مؤذن يؤذن قبل الصبح **والثالثة**: أن الخيال في بداية الأمر محتاج إليه جداً ليضبط بها المعارف العقلية ولا تضطرب.

فنعم المثالات الخيالية الجالبة للمعارف العقلية، وأنت لا تجد شيئاً في الأجسام يشبه الخيال في هذه الصفات الثلاثة إلا الزجاجة، فإنها في الأصل من جوهر كثيف ولكن صفا ورقّ حتى صار لا يحجب نور المصباح بل يؤديه على وجهه، ثم يحفظه عن الانطفاء بالرياح العاصفة.

وأما الثالث: وهو القوة العقلية فهي القوية على إدراك الماهيات الكلية والمعارف الإلٓهية، فلا يخفى عليك وجه تمثيله بالمصباح، وقد عرفت هذا حيث بيَّنا كون الأنبياء سُرُجاً منيرة.

وأما الرابع: وهو **القوة الفكرية** فمن خواصها أنها تأخذ ماهية واحدة، ثم تقسمها إلى قسمين كقولنا: الموجود إما واجب وإما ممكن، ثم تجعل

كل قسم مرة أخرى قسمين وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية، ثم تقضي بالآخرة إلى نتائج وهي ثمراتها، ثم تعود فتجعل تلك الثمرات بذوراً لأمثالها حتى تتأدى إلى ثمرات لا نهاية لها، فبالحري أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة، وإذا كانت ثمارها مادة لتزايد أنوار المعارف ونباتها، فبالحري أن لا يمثل بشجرة السفرجل والتفاح، بل بشجرة الزيتون خاصة، لأن لب ثمرتها هو الزيت الذي هو مادة المصابيح، وله من بين سائر الأدهان خاصية زيادة الاشراق وقلة الدخان، وإذا كانت الماشية التي يكثر درُّها ونسلها، والشجرة التي تكثر ثمرتها تسمى مباركة، فالذي لا يتناهى إلى حدٍّ محدودٍ أولى أن يُسمَّى شجرة مباركة، وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة مجردة عن لواحق الأجسام، فبالحريِّ أن تكون لا شرقية ولا غربية.

وأما الخامس: وهو القوة القدسية النبوية: فهي في نهاية الشرف والصفاء، فإن القوة الفكرية تنقسم إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه وإلى ما لا يحتاج إليه، ولا بد من وجود هذا القسم قطعاً للتسلسل، فبالحري أن يعبَّر عن هذا القسم بكماله وصفائه وشدة استعداده بأنه يكاد زيتها يُضيْء ولو لم تمسسه نار، فهذا المثال موافق لهذا القسم، ولما كانت هذه الأنوار مرتَّبة بعضها على بعض فالحس هو الأول، وهو كالمقدمة للخيال، والخيال كالمقدمة للعقل، فبالحري أن تكون المشكاة كالظرف للزجاجة التي هي كالظرف للمصباح.

وسادسها: ما ذكره أبو علي بن سينا[1] فإنه نزَّل هذه الأمثلة الخمسة على مراتب إدراكات النفس الإنسانية، فقال:

«لا شك أن النفس الإنسانية قابلة للمعارف الكلية والإدراكات المجردة، ثم إنها في أول الأمر تكون خالية عن جميع هذه المعارف فهناك تُسمَّى عقلاً هيولياً وهي المشكاة وفي المرتبة الثانية: يحصل فيها العلوم البديهية

---

(١) هو الحسين بن عبد الله، الرئيس الفيلسوف، توفي سنة ٤٢٨ هـ (وفيات الأعيان ١/ ١٥٢).

التي يمكن التوصل بتركيباتها إلى اكتساب العلوم النظرية، ثم إن أمكنة الإنتقال إن كانت ضعيفة فهي الشجرة، وإن كانت أقوى من ذلك فهي الزيت، وإن كانت شديدة القوة جداً فهي الزجاجة التي تكون كأنها الكوكب الدري، وإن كانت في النهاية القصوى وهي النفس القدسية التي للأنبياء فهي التي يكادُ زيتُها يُضيءُ وَلَوْ لَمْ تمسَسْهُ نارٌ **وفي المرتبة الثالثة**: يكتسب من العلوم الفطرية الضرورية العلوم النظرية، إلا أنها لا تكون حاضرة بالفعل، ولكنها تكون بحيث متى شاء صاحبها استحضارها قدر عليه، وهذا يُسمى عقلاً بالفعل، وهذا المصباح **وفي المرتبة الرابعة**: أن تكون تلك المعارف الضرورية والنظرية حاصلة بالفعل، ويكون صاحبها كأنه ينظر إليها وهذا يُسمى عقلاً مستفاداً، وهو نور على نور، لأنَّ المَلَكَة[٢] نور، وحصول ما عليه المَلَكَة نور آخر، ثم زعم أن هذه العلوم التي تحصل في الأرواح البشرية، إنما تحصل من جوهر روحاني يسمى بالعقل الفعال، وهو مدبر ما تحت كرة القمر، وهو النار.

وسابعها: قول بعض الصوفية: هو أنه سبحانه شبَّه الصَّدر بالمشكاة، والقلب بالزجاجة، والمعرفة بالمصباح، وهذا المصباح إنما توقد من شجرة مباركة، وهي إلهامات الملائكة لقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾[١] وقوله: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾[٢]، وإنما شبَّه الملائكة بالشجرة المباركة لكثرة منافعهم، وإنما وصفها بأنها لا شرقية ولا غربية، لأنها روحانية، وإنما وصفهم بقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ لكثرة علومها وشدة اطلاعها على أسرار ملكوت الله تعالى والظاهر ههنا أن المشبه غير المشبه به.

وثامنها: قال مقاتل[١]: مثل نوره، أي: مثل نور الإيمان في قلب

---

(١) سورة النحل، الآية: ٢.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ١٩٣.

محمد صلى الله عليه وسلم كمشكاة فيها مصباح، فالمشكاة نظير صلب عبد الله، والزجاجة نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم، والمصباح نظير الإيمان في قلب محمد، أو نظير النبوة في قلبه.

وتاسعها: قال قوم المشكاةُ: نظير إبراهيم عليه السلام، والزجاجةُ: نظير اسماعيل عليه السلام، والمصباح نظير جسد محمد صلى الله عليه وسلم، والشجرة: النبوة والرسالة.

وعاشرها: أن قوله **مَثَلُ نُورِهِ** يرجع إلى المؤمن وهو قول أبيّ بن كعب وكان يقرأها: **مثل نور المؤمن**، وهو قول سعيد بن جبير والضحَّاك.

واعلم أن القول الأول هو المختار لأنه تعالى ذكر قبل هذه الآية ﴿**وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ**﴾[1] فإذا كان المراد بقوله: ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾ أي مثل هداه وبيانه، كان ذلك مطابقاً لما قبله، ولأنَّا لما فسَّرنا قوله: ﴿**اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ بأنَّه هادي أهل السموات والأرض، فإذا فسرنا قوله ﴿**مَثَلُ نُورِهِ**﴾ بأن المراد: مَثَلُ هداه كان ذلك مطابقاً لما قبله.

---

(١) سورة النور، الآية: ٣٤.

الفصل الرابع

في بقية المباحث المتعلقة بهذه الآية وفيه مسائل:

(المسألة الأولى) المشكاة الكوة في الجدار غير النافذة، هذا هو القول المشهور، وذكروا فيه وجوهاً أُخر:

أحدها: قال ابن عباس وأبو موسى الأشعري: المشكاة القائم الذي في وسط القنديل الذي يدخل فيه الفتيلة، وهو قول مجاهد والقرظي.

والثاني: قال الزجَّاج هي ههنا قصبة القنديل من الزجاجة التي توضع فيها الفتيلة.

الثالث: قال الضحَّاك إنها الحلقة التي يعلق بها القنديل والأول هو الأصح.

(المسألة الثانية) زَعَمُوا أن المشكاة هي الكوَّة بلغة الحبشة، قال الزُّجاجُ: المشكاة من كلام العرب، ومثلها المشكاة، وهي الدقيق الصغير.

(المسألة الثالثة) قال بعضُهم هذه الآية من المقلوبِ، والتقدير: مثل نوره كمصباح في مشكاة لأن المشبه به هو الذي يكون معدناً للنور، ومنبعاً له، وذلك هو المصباح لا المشكاة.

(المسألة الرابعة) المصباح السراج، وأصله من الضوء، ومنه الصبح.

(المسألة الخامسة) قُرىء زجاجة الزجاجة بالضم والفتح والكسر، أما دري فقرىء بضم الدال وكسرها وفتحها، أما الضم ففيه ثلاثة أوجه: **الأول** ضم الدال وتشديد الراء والياء من غير همز وهو القراءة المعروفة، ومعناه أنه يشبه الدر لصفائه ولمعانه، وقال عليه الصلاة والسلام «إنَّكم لَتَرَوْنَ أَهْلَ الدرجاتِ العُلى كما تَرَوْنَ الكَوْكِبَ الدري في أفق السماء» **الثاني**: أنه كذلك إلا أنه بالمد والهمزة، وهو قراءة حمزة وعاصم في رواية أبي بكر،

وصار بعض أهل العربية إلى أنه لحن، قال سيبويه: وهذا أضعف اللغات، وهو مأخوذ من الضوء والتلألؤ، وليس بمنسوب إلى الدرّ، قال أبو علي: وجه هذه القراءة أنه فعيل من الدرء، بمعنى الدفع، وأنه صفة، وأنه في الصفة مثل المريء في الاسم. **والثالث**: ضمُّ الدال وتخفيف الراء والياء من غير مد ولا همز.

أما **الكسر** ففيه وجهان: **الأول**: دِرِّيء بكسر الدال وتشديد الراء والمد والهمز، وهي قراءة أبي عمرو والكسائي، قال الفراء هو فعيل من الدرء، وهو الدفع كالسِّكير والفِسِّيق، فكان ضوأه يدفع بعضه بعضاً من لمعانه. **الثاني**: بكسر الدال وتشديد الراء من غير همز ولا مد، وهي قراءة ابن خليد وعتبة بن حماد عن نافع.

أما **الفتح** ففيه وجوه أربعة: **الأول**: بفتح الدال وتشديد الراء والمد والهمز عن الأعمش. **الثاني**: بفتح الدال وتشديد الراء من غير مد ولا همز، عن الحسن ومجاهد وقتادة **الثالث**: بفتح الدال وتخفيف الراء مهموزاً من غير مدّ ولا ياء عن عاصم. **الرابع**: كذلك إلاَّ أنه غير مهموز، وبياء خفيفة بدل الهمزة، أما قوله: ﴿تُوقَدُ﴾ القراءة المعروفة توقد بالفتحات الأربعة مع تشديد القاف بوزن تفعل، وعن الحسن ومجاهد وقتادة كذلك، إلا أنه يضم الدال، وذكر صاحب الكشاف[1] يوقد بفتح الياء المنقوطة من تحت بنقطتين والواو والقاف وتشديدها، ورفع الدال، قال وحذف التاء لاجتماع حرفين زائدين وهو غريب، وعن سعيد بن جبير بياء مضمومة وإسكان الواو وفتح القاف مخففة ورفع الدال وعن نافع وحفص كذلك إلا أنه بالتاء، وعن عاصم بياء مضمومة وفتح الواو وتشديد القاف وفتحها، وعن أبي عمر وكذلك إلاَّ أنه بالتاء، وعن طلحة توقد بتاء مضمومة وواو ساكنة وكسر القاف وتخفيفها.

---

(١) الزمخشري.

(**المسألة السادسة**) قوله: ﴿كَأَنَّهَا كَوكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي ضخم مضيء ودراري النجوم عظامها، واتفقوا على أن المراد به كوكب من الكواكب المضيئة كالزهرة والمشتري والثوابت التي في العظم الأول.

(**المسألة السابعة**) قوله: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ﴾ أي من زيت شجرة مباركة أي كثيرة البركة والنفع، وقيل هي أول شجرة نبتت بعد الطوفان وقد بارك فيها سبعون نبياً، منهم الخليل، وقيل المراد زيتون الشام، لأنها هي الأرض المباركة فلهذا جعل الله هذه شجرة مباركة.

(**المسألة الثامنة**) اختلفوا في معنى وصف الشجرة بأنها لا شرقية ولا غربية على وجوه: **أحدها**: قال الحسن إنها شجرة الزيت من الجنة إذ لو كانت من شجر الدنيا لكانت إما شرقية أو غربية وهذا ضعيف لأنه تعالى إنما ضرب المثل بما شاهدوه وهم ما شاهدوا شجر الجنة. **وثانيها**: أن المراد شجرة الزيتون في الشام لأن الشام وسط الدنيا فلا يوصف شجرها بأنها شرقية أو غربية وهذا أيضاً ضعيف لأن من قال الأرض كرة لم يثبت المشرق والمغرب موضعين معينين بل لكل بلد مشرق ومغرب على حدة، ولأن المثل مضروب لكل من يعرف الزيت، وقد يوجد في غير الشام كوجوده فيها. **وثالثها**: أنها شجرة تلتف بها الأشجار فلا تصيبها الشمس في شرق ولا غرب، ومنهم من قال هي شجرة يلتف بها ورقها التفافاً شديداً فلا تصل الشمس إليها سواء كانت الشمس شرقية أو غربية، وليس في الشجر ما يورق غصنه من أوله إلى آخره مثل الزيتون والرمان، وهذا أيضاً ضعيف لأن الغرض صفاء الزيت وذلك لا يحصل إلا بكمال نضج الزيتون وذلك إنما يحصل في العادة بوصول أثر الشمس إليه بعدم وصوله. **ورابعها**: قال ابن عباس المراد الشجرة التي تبرز على جبل عال أو صحراء واسعة فتطلع الشمس عليها حالتي الطلوع والغروب، وهذا قول ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة واختيار الفراء والزجاج، قالا ومعناه لا شرقية وحدها ولا غربية وحدها ولكنها شرقية وغربية وهو كما يقال فلان لا مسافر ولا مقيم إذا كان

يسافر ويقيم، وهذا القول هو المختار لأن الشجرة متى كانت كذلك كان زيتها في نهاية الصفاء وحينئذ يكون مقصود التمثيل أكمل وأتم. وخامسها: المشكاة صدر محمد صلى الله عليه وسلم والزجاجة قلبه والمصباح ما في قلبه صلى الله عليه وسلم من الدين، توقد من شجرة مباركة، يعني ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾[1] صلوات الله عليه فالشجرة هي إبراهيم عليه السلام، ثم وصف إبراهيم فقال لا شرقية ولا غربية أي لم يكن يصلي قبل المشرق ولا قبل المغرب كاليهود والنصارى بل كان عليه الصلاة والسلام يصلي إلى الكعبة.

(المسألة التاسعة) وصف الله تعالى زيتها بأنه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار لأن الزيت إذا كان خالصاً صافياً ثم رؤي من بعيد يرى كأن له شعاعاً، فإذا مسه النار ازداد ضوأ على ضوء، كذلك يكاد قلب المؤمن يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد نوراً على نور وهدى على هدى، قال يحيى بن سلام قلب المؤمن يعرف الحق قبل أن يبين له لموافقته له، وهو المراد من قوله عليه الصلاة والسلام: «اتَّقُوا فِراسَةَ الْمؤْمِنِ فإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ» وقال كعب الأحبار المراد من الزيت نور محمد صلى الله عليه وسلم أي يكاد نوره يبين للناس قبل أن يتكلم، وقال الضحاك يكاد محمد صلى الله عليه وسلم يتكلم بالحكمة قبل الوحي، وقال عبد الله بن رواحة:

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تنبيك بالخبر

(المسألة العاشرة) قوله تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾ المراد ترادف هذه الأنوار واجتماعها، قال أبي بن كعب: المؤمن بين أربع خلال أن أعطى شكر وإن ابتلى صبر وإن قال صدق وإن حكم عدل، فهو في سائر الناس كالرجل الحي الذي يمشي بين الأموات يتقلب في خمس من النور، كلامه نور وعمله نور ومدخله نور ومخرجه نور ومصيره إلى النور يوم القيامة، قال الربيع سألت أبا العالية عن مدخله ومخرجه فقال سره وعلانيته.

(١) سورة آل عمران، آية ٩٥.

(المسألة الحادية عشرة) قال الجبائي دلت الآية على أن كل من جهل فمن قبله أتى وإلا فالأدلة واضحة ولو نظروا فيها لعرفوا، قال أصحابنا هذه الآية صريح مذهبنا فإنه سبحانه بعد أن بين أن هذه الدلائل بلغت في الظهور والوضوح إلى هذا الحد الذي لا يمكن الزيادة عليه، قال ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني وضوح هذه الدلائل لا يكفي ولا ينفع ما لم يخلق الله الإيمان ولا يمكن أن يكون المراد من قوله ﴿يَهْدِي اللَّهُ﴾ إيضاح الأدلة والبيانات لأنا لو حملنا النور على إيضاح الأدلة لم يجز حمل الهدى عليه أيضاً، وإلا لخرج الكلام عن الفائدة، فلم يبق إلا حمل الهدى ههنا على خلق العلم أجاب أبو مسلم بن بحر عنه من وجهين: **الأول**: أن قوله ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ محمول على زيادات الهدى الذي هو كالضد للخذلان الحاصل للضال. **الثاني**: أنه سبحانه يهدي لنوره الذي هو طريق الجنة من يشاء وشبهه بقوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾[1] وزيف القاضي عبد الجبار هذين الجوابين **أما الأول** فلأن الكلام المتقدم هو في ذكر الآيات المنزلة فإذا حملناه على الهدى دخل الكل فيه وإذا حملناه على الزيادة لم يدخل فيه إلا البعض، وإذا حمل على طريق الجنة لا يكون داخلاً فيه أصلاً إلا من حيث المعنى لا من حيث اللفظ ولما زيف هذين الجوابين، قال الأولى أن يقال إنه تعالى هدى بذلك البعض دون البعض وهم الذين بلغهم حد التكليف.

واعلم أن هذا الجواب أضعف من الجوابين الأولين، لأن قوله ﴿يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ يفهم منه أن هذه الآيات مع وضوحها لا تكفي، وهذا لا يتناول الصبي والمجنون فسقط ما قالوه.

(المسألة الثانية عشرة) قوله تعالى: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ﴾[2] والمراد للمكلفين من الناس وهو النبي ومن بعث إليه، فإنه سبحانه ذكر ذلك في معرض النعمة العظيمة، واستدلت المعتزلة به فقالوا إنما يكون ذلك

---

(١) سورة الحديد، الآية: ١٢.

(٢) سورة النور، الآية: ٣٥.

نعمة عظيمة لو أمكنهم الانتفاع به، ولو كان الكل بخلق الله تعالى لما تمكنوا من الانتفاع به، وجوابه ما تقدم، ثم بين أنه سبحانه ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾(١) وذلك كالوعيد لمن لا يعتبر ولا يتفكر في أمثاله ولا ينظر في أدلته فيعرف وضوحها وبعدها عن الشبهات.

قال الله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٢).

واعلم أن النور اسم لهذه الكيفية التي يضادها الظلام، ويمتنع أن يكون الحق سبحانه هو ذلك، ويدل عليه وجوه.

الأول: أن هذه الكيفية تطرأ وتزول، والحق سبحانه يستحيل أن يكون كذلك.

الثاني: الأجسام متساوية في الجسمية، ومختلفة في الضياء والظلمة، فيكون الضوء كيفية قائمة بالجسم محتاجة إليه، وواجب الوجود لا يكون كذلك.

الثالث: أن النور مناف للظلمة، وجل الحق أن يكون له ضد وند.

الرابع: قال الله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾(٣) فأضاف النور إلى نفسه، فلو كان تعالى هو النور لكان هذا إضافة الشيء إلى نفسه، وهو محال، فهو تعالى ليس نوراً، وليس أيضاً بمكيف بهذه الكيفية، لأن هذه الكيفية لا يعقل ثبوتها إلا للأجسام.

ثم اختلف العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ على وجوه.

الأول: إن النور الظاهر هو الذي يظهر له كل شيء خفي، والخفاء ليس إلا العدم، والظهور ليس إلا الوجود، والحق سبحانه موجود، ولا يقبل

(١) سورة التوبة: آية ١١٥.
(٢) سورة النور: آية ٣٥.
(٣) سورة النور: آية ٣٥.

العدم، فهو تغير لا يقبل الظلمة، والحق سبحانه هو الذي به وجد كل شيء ما سواه فهو سبحانه نور كل ظلمة، وظهور كل خفاء، فالنور المطلق هو الله بل هو نور الأنوار.

الثاني: أن يكون المراد من قوله ﴿اللهُ نُورُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾ أي الله منوِّر السموات والأرض، والدليل عليه قوله بعد ذلك ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾.

والثالث: أن يقال فلان زين البلد ونوره، إذا كان سبباً لمصلحة البلد، فكان الحق سبحانه هو الذي استقامت به مصالح المخلوقات، فلا جرم سمي نوراً بهذا التأويل.

الرابع: أن يكون المراد من النور الهادي. بقوله ﴿اللهُ نُورُ السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ﴾معناه الله هادي السموات والأرض.

واعلم أن تفسير الآية بهذا الوجه حسن إلا أن تفسير النور في الأسماء التسعة والتسعين، لو كان الهادي لكان ذكر الهادي بعده تكراراً محضاً، وأنه لا يجوز.

وأما حظ العبد منه: فاعلم أن نور القلب عبارة عن معرفة الله، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾[1].

أما المشايخ فقالوا: النور هو الذي نوّر قلوب الصادقين بتوحيده ونوّر أسرار المحبين بتأييده.

وقيل: هو الذي حسَّن الأبشار بالتصوير، والأسرار بالتنوير، وقيل: هو الذي أحيا قلوب العارفين بنور معرفته، وأحيا نفوس العابدين بنور عبادته.

وقيل: هو الذي يهدي القلوب إلى إيثار الحق واصطفائه، ويهدي الأسرار إلى مناجاته واجتنابه.

روي أن سعيد بن المسيب سأل جبلة بن أشيم أن يدعو له، فقال: زَهَّدَكَ اللَّهُ في الفاني، وَرَغَّبَكَ في الْباقي، وَوَهَبَ لَكَ يقيناً تَسْكُنُ إلَيْهِ.

---

(١) النور: ٤٠.

يتضح هدف كتاب «المشكاة في الأسطر العشر الأولى منه والتي تعتبر مقدمة ومدخلاً إلى الكتاب، فالإمام الغزالي يثني على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، ويعتبر الكتاب جواب سؤالٍ من أحد إخوانه عن: أسرار الأنوار الإلٓهية مقترناً بالشواهد من الكتاب (ظواهر الآيات المتلوَّة)، ومن السنة الشريفة (الأخبار المروية).

فمثال الآيات: قوله تعالى: ﴿**اللَّهُ نُورُ السَّمَٰوَاتِ وَالأرضِ...**﴾.

ومثال السنة :الحديث الشريف «إن لله سبعين حجاباً...».

ثم يبدأ الإجابة على عدة مراحل:

أولها: بيان أهمية السؤال وقيمته وأبعاده، ومن هم أهل الإجابة عليه.

ثانيها: بيان أن الإجابة عليه لا يستطيع الدخول في باب فهمها إلا الخواص من الناس دون العامة وهؤلاء الخواص يكفيهم من هذا العلم كمرحلة أولى «تلويحات موجزة وإشارات مختصرة» لأنَّ السؤال عن أسرار الأنوار الإلٓهية. و«كشف سر الربوبية كفر».

ثالثها: يعتبر الإجابة: فتح من الله تعالى وهو بحالة ينفتح أمامه بها ثلاثة فصول. يتناولها بالشرح والتفصيل فصلاً فصلاً إلى أن ينتهي الكتاب بانتهاء الفصل الثالث.

مشكاة الأنوار ومصفاة الأسرار

للإمام الغزالي

شرح ودراسة وتحقيق

الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان

عن مخطوطتين نفيستين

بسم الله الرحمن الرحيم. رب أنعمت فزدْ بفضلك

الحمد لله فائض الأنوار وفاتح الأبصار، وكاشف الأسرار ورافع الأستار. والصلاة على [رسوله](I) محمد نور[1] الأنوار، وسيد الأبرار، وحبيب الجبار، وبشير الغفّار، ونذير القهّار، وقامع الكفّار، وفاضح الفجّار؛ وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين الأخيار.

أما بعد فقد سألتني أيها الأخ الكريم قيّضك الله لطلب السعادة الكبرى، ورشحك للعروج إلى الذروة العليا، وكحّل بنور الحقيقة[2] بصيرتك[3]، ونقّى عمّا سوى الحق[4] سريرتك[5]، أن أبث إليك أسرار

---

(١) نور الأنوار: هو الحق سبحانه في اصطلاحات الصوفيين (انظر: الكاشي اصطلاحات صوفية ٩٨) ولكنه هنا يقصد: فيضان نوره صلى الله عليه وسلم على غيره بفيض أنواع المعارف على الخلائق (انظر ص ٥١ ــ وص ٥٢) وذلك من معاني ﴿سِرَاجاً مُنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٦].

(٢) الحقيقة: على وزن فعيلة، من حق الشيء: إذا ثبت وبقي على موضوعه، وهي عند المتصوفة: سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه تعالى، بأنه الفاعل بك، فيك، منك لا أنتَ (تعريفات ٢٨٨).

(٣) قوة للقلب منورة بنور القُدُس، يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها بمثابة البصر للنفس الذي ترى به صور الأشياء وظواهرها، وهي القوة التي يسميها الحكماء القوة العاملة. النظرية أما إذا تنورت بنور القدس، وانكشف حجابها بهداية الحق فيسميها الحكيم: القوة القدسية (تعريفات ٤٧) (اصطلاحات صوفية ٣٧).

(٤) أي: الله تعالى، والحق لغةً: ما غلبت حججه (كليات ٢/٢٣٨).

(٥) السريرة: هو ما يكتم (كليات أبي البقاء ٣/٤٤).

الأنوار الإلهية، مقرونة بتأويل ما يشير إليه ظواهر الآيات المتلوة[1]، والأخبار المروية[2] مثل قوله تعالى: ﴿اللهُ نُورُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[3] ومعنى تمثيله ذلك: بالمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت والشجرة، مع قوله عليه السلام «إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة وإنه لو كشفها لأحرقت سبحاتُ[4] وجهه كل من أدركه[5] بصره[6]».

ولقد ارتقيت بسؤالك مرتقىً صعباً تنخفض دون أعاليه أعين الناظرين؛ وَقَرَعْت باباً مغلقاً لا يُفتَح إلا للعلماء الراسخين[7]. ثم ليس كل سر

---

(١) الآيات المتلوَّة: القرآن الكريم.

(٢) الأخبار المروية: عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٤) سبحات وجهه: أنواره. والسبحات مواضع السجود: لغةً (كليات ٣/٤٤) وقال ابن أثير في كتابه (النهاية في غريب الحديث): سبحات الله: جلاله وعظمته، وهي في الأصل: جمع سبحة، وقيل أضواء وجهه، وقيل: محاسنه، لأنك إذا رأيت الحَسَن الوجه. قلت: سبحان الله. وقيل معناه: تنزيه له: أي سبحان وجهه، وقيل: سُبُحات وجهه كلامٌ معترضٌ بين الفعل والمفعول: أي لو كشفها لأحرقت كلَّ شيءٍ أدركه بصره، فكأنه قال: لأحرقت سُبُحات الله كلَّ شيءٍ أبصره. وأقرب من هذا كله أن المعنى: لو انكشف من أنوار الله التي تحجب العبادَ عنه شيءٌ لأهلكَ كلَّ من وقع عليه ذلك النور، كما خرَّ موسى عليه السلام صَعِقاً، وتقطَّع الجبل دكًّا لما تجلَّى الله سبحانه وتعالى (٢/٣٣٢) وللغزالي رضي الله عنه آراءه ستأتي في بقية الكتاب.

(٥) أدركه: وصل إليه.

(٦) الحديث رواه مسلم في صحيحه بلفظ: «إن الله لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل النهار قبل الليل، وعمل الليل قبل النهار، حجابه النور، لو كشف طبقها، لأحرقت سُبُحات وجهه كل شيء أدركه بصره، واضع يده لمسيء الليل ليتوب بالنهار، ومسيء النهار ليتوب بالليل حتى تطلع الشمس من مغربها».
كما رواه ابن خزيمة في كتاب التوصية ص (١٩) بأكثر من لفظ من روايات بأسانيد متعددة، وانظر (ابن ماجة ـ مقدمة ١٣. أحمد بن حنبل ٤/٤٠١، ٤٠٥).

(٧) الراسخون: كل ثابت راسخ (٢/٣٦٧ كليات).

يُكشَف ويُفشى، ولا كل حقيقة تعرض وتُجلَى؛ بل صدور الأحرار قبور الأسرار.

ولقد قال بعض العارفين[1] : «**إفشاء سر الربوبية[2] كفر**»[3] . بل قال سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه: «**إن من العلم كهيئة المكنون[4] لا** يعلمه إلا العلماءُ باللهِ. فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغِرّة بالله، ومهما كثر أهل الاغترار وجب حفظ الأسرار على وجه الإسرار من الأشرار». لكني أراك مشروح الصدر بالله بالنور، منزه السر عن ظلمات الغرور فلا أشح[5] عليك في هذا الفن بالإشارة إلى **لوامع**[6] **ولوائح**[7]؛

(١) العارفون: مفرده عارف: وهو من أشهده الله ذاته وصفاته وأسماءه وأفعاله، فالمعرفة حال تحدث عن شهوده (اصطلاحات صوفية ١٠٦).

(٢) سر الربوبية: هو ظهور الرب بصورة الأعيان، فهي من حيث مظهريتها للرب القائم بذاته، الظاهر بتعيناته، قائمة به موجودة بوجوده (اصطلاحات ١٠٢).

(٣) العبارة قالها أبو طالب مكي بن أبي طالب القيسي (توفي سنة ٤٣٧ هـ) رواية عن سهل ابن عبد الله التستري (توفي سنة ٢٨٣ هـ) ونصها: «للربوبية سر لو كشف بطلت النبوة» (قوت القلوب ٢/٩٠ ط الميمنية).

(٤) المكنون: المستور (كليات ١/٢٦٧).

(٥) أشح: أبخل.

(٦) اللوامع: أنوار ساطعة تلمع لأهل البدايات من أرباب النفوس الضعيفة، فتنعكس من الخيال إلى الحسِّ المشترك فتصير مشاهدة بالحواس الظاهرة فيتراءى لهم أنوار كأنوار الشهب والشمس والقمر، فيضيء ما حولهم، فهي إما عن غلبة أنوار القهر والوعيد على النفس، وإما من غلبة أنوار اللطف والوعد (اصطلاحات صوفية ٧٤) (تعريفات ٢٠٤).

(٧) اللوائح: ما يلوح من الأسرار الظاهرة من السموِّ من حال إلى حال، وعندنا ما يلوح للبصر إذا لم تتقيد بالخارجة، ومن الأنوار الذاتية لا من جهة القلب (تعريفات ٢٩١) وقد يطلق على ما يلوح للحسِّ من عالم المثال كما «سارية: الصحابي الجليل» لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو من الكشف الصوري، أو ما يلوح من نور التجلي ثم يروح ويسمى بارقة، وخطرة (اصطلاحات ٧٢ - ٧٣) والأخير المقصود من كلام الغزالي والله أعلم.

والرمز إلى حقائق ودقائق. فليس الخرق[1](١) في كف العلم عن أهله، بأقل منه في بثه في[2] غير أهله.

فمن مَنَحَ الجهّال علماً أضاعه ومن مَنَع المستوجبين فقد ظلم

فاقنع بإشارات مختصرة، وتلويحات موجزة؛ فإن تحقيق القول فيه يستدعي تمهيد أصول، وشرح فصول، ليس يتسع الآن لها وقتي، وليس تنصرف[3] إليه همتي[4] وفكرتي. ومفاتيح القلوب بيد الله يفتحها إذا شاء كما شاء بما يشاء[5]. وإنما الذي ينفتح في الوقت فصول ثلاثة.

---

(١) الخرق: الجهل، وقطع الشيء على سبيل الفساد، ومن غير تفكر، ولا تدبر (كليات ٤/ ٥١).

(٢) الهمة: العزيمة (كليات ٥/ ٨٠).

(1) في المطبوعة: الخوف.

(2) في المطبوعة: إلى.

(3) في المطبوعة: ينصرف.

(4) في المطبوعة: همي.

(5) في المخطوطة: تشاء.

الفصل الأول

في بيان أن النور الحق(١) هو الله تعالى وأن اسم النور لغيره مجاز(٢) محض لا حقيقة له

وبيانه بأن تعرف(1) معنى النور بالوضع الأول: عند العوام(٣)، ثم بالوضع الثاني: عند الخواص، ثم بالوضع الثالث: عند خواص الخواص. ثم تعرف درجات الأنوار المذكورة المنسوبة إلى خواص الخواص، وحقائقها لينكشف لك عند ظهور درجاتها أن الله تعالى هو النور الأعلى الأقصى، وعند انكشاف حقائقها أنه النور الحق الحقيقي وحده لا شريك له فيه.

أما الوضع الأول: عند العامي فالنور يشير إلى الظهور، والظهور أمر إضافي: إذ يظهر الشيء لا محالة لإنسان(2) ويبطن عن غيره: فيكون ظاهراً بالإضافة، وباطناً بالإضافة. وإضافة ظهوره إلى الإدراكات(٤) لا محالة.

---

(١) اصطلاح وضعه الغزالي، لم أجده بين مصطلحات الصوفية، ومدار هذا الكتاب «المشكاة» على تفسيره، وتأكيد معناه.

(٢) المجاز: اسم لما أريد به غير ما وضع له (تعريفات ٢١٤).

(٣) العوام: هم الذين اقتصر علمهم على الشريعة، ويسمى علماؤهم علماء الرسوم (اصطلاحات ١٠٧).

(٤) الإدراكات: حصول الصورة عند النفوس الإنسانية (تعريفات ١٣).

(1) في المطبوعة: يعرف.

(2) في المخطوطة لواحد ثم صححت لإنسان.

وأقوى الإدراكات وأجلاها عند العوام الحواسُّ[١]، ومنها: حاسة البصر.

والأشياء بالإضافة إلى الحِسِّ البصري ثلاثة أقسام:

منها: ما لا يُبصَر بنفسه كالأجسام المظلمة.

ومنها: ما يبصَر بنفسه ولا يبصَر به غيره كالأجسام المضيئة مثل الكواكب[1] وجمرة النار إذا لم تكن مُشعلة[2].

ومنها: ما يبصَر بنفسه ويبصَر به أيضاً غيره كالشمس والقمر والسراج والنيران المشتعلة.

والنور اسم لهذا القسم الثالث. ثم تارة يطلق على ما يفيض من الأجسام على ظواهر الأجسام الكثيفة، فيقال استنارت الأرض ووقع نور الشمس على الأرض ونور السراج على الحائط والثوب. وتارة يطلق على نفس هذه الأجسام المشرقة لأنها أيضاً في نفسها مستنيرة.

وعلى الجملة فالنور عبارة عما يبصَر بنفسه ويبصَر به غيره كالشمس. هذا حده وحقيقته بالوضع الأول.

دقيقة

لما كان سر النور وروحه هو الظهور للإدراك، وكان الإدراك موقوفاً على وجود النور وعلى وجود العين الباصرة أيضاً: إذ النور هو الظاهر المظهِر؛ وليس شيء من الأنوار ظاهراً في حق العميان ولا مُظهراً. فقد ساوى[3]

---

(١) الحواس: هي الحواس الخمس: السمع، والبصر، والذوق، والشم، واللمس.

(1) في المطبوعة: كالكواكب.

(2) في المطبوعة: مشتعلة.

(3) في المطبوعة: تساوي الروح الباصرة والنور الظاهر.

الروح الباصرة(١) النـورَ الظاهر في كونه ركناً لا بد منه للإدراك ثم ترجّح عليه في أن الروح الباصرة هي المدرِكة وبها الإدراك. وأما النور فليس بمدرِك ولا به الإدراك، بـل عنده الإدراك. فكـان اسم النور بـالروح[1] الباصرة[2] أحق منه بالنور المبصَر عنده[3].

فأطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا في الخفّاش إن نور عينه ضعيف، وفي الأعمش إنه ضعف[4] نور بصره، وفي الأعمى إنه فقد نور البصر، وفي السواد إنه يجمع نور البصر ويقوّيه، وإن الأجفان إنما خصتها الحكمة الإلّهية بلون السواد، وجعل العين محفوفة بها لتجمع ضوء العين. وأما البياض فيفرِّق ضوء العين ويضعف نوره، حتى إن إدامة النظر إلى البياض المشرق، بل إلى نور الشمس يبهر نور العين ويمحقه كما ينمحق الضعيف في جنب القوي.

فقد عرفت بهذا أن الروح الباصرة[5] تسمى[6] نوراً، وأنه لِمَ سمِّـيَت[7] نوراً، وأنه لِمَ كان بهذا الإسم أولى.

وهذا هو الوضع الثاني، وهو وضع الخواص.

دقيقة

إعلم أن نور بصر العين موسوم بأنواع من[8] النقصان: فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه، ولا يبصر ما بَعُد منه ولا مقرب[9]، ولا يبصر ما هو وراء

---

(١) الروح الباصرة: هي البصيرة، وهي: قوة للقلب المنوَّر بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء، وبواطنها بمثابة البصر للنفس يرى به صور الأشياء وظواهرها، وهي التي يسمِّيها الحكماء: العاقلة النظرية، والقوة القدسية (تعريفات ٤٧).

(1) في المطبوعة: بالنور.

(2) في المطبوعة: الباصر.

(3) في المطبوعة ساقطة.

(4) في المخطوطة: ضعف.

(5) في المطبوعة: الباصر.

(6) في المطبوعة: سمى.

(7) في المطبوعة: سمى.

(8) في المطبوعة ساقطة.

(9) في المطبوعة ساقطة.

حجاب. ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها؛ ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها.

ويبصر أشياء متناهية، ولا يبصر ما لا نهاية له. ويغلط كثيراً في إبصاره: فيرى الكبير صغيراً، والبعيد قريباً، والساكن متحركاً، والمتحرك ساكناً. فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة. فإن كان في الأعين[١] عين منزَّهة عن هذه النقائص كلها فليت شعري هل هو[٢] أَوْلى باسم النور أم لا؟

واعلم أن في قلب الإنسان عيناً هذه صفةُ كمالها، وهي التي يعبّر عنها: تارة بالعقل وتارة بالروح وتارة بالنفس/ الإنساني. ودعْ عنك هذه[1] العبارات فإنها إذا كثرت أوهَمَت عند ضعيف البصيرة كثرة المعاني. فنعني به المعنى الذي يتميز به العاقل عن الطفل الرضيع، وعن البهيمة، وعن المجنون، ولنسمِّيه[2] «عقلاً» متابعة للجمهور[٣] في الاصطلاح فنقول:

العقل أَوْلى بأن يُسمى نوراً من العين الظاهرة، لِرفعةِ قدره عن النقائص السبع:

---

(١) الأعين: أي: العيون جمع عين ولعلَّ ابن عربي أخذ مصطلحه عن العين من الإمام الغزالي أنظر (الحكمة ٨٣١ - ٨٣٥ فصوص الحكم) وإحالاتها.

(٢) هو: يعني: الله تعالى من حيث كونه غيباً، وهي كذلك عند ابن عربي، انظر كتابه (الفتوحات ٢/١٢٨ و٤/٤٤٣) و(الأشواق ٦٦) وفي (الحكمة في حدود الكلمة ١١٢١) يضيفها ابن عربي دائماً إلى الله.

(٣) الجمهور: جمهور علماء اللغة والفقه، وكلمة عقل في القرآن الكريم لم ترِد بصيغة الاسم بل بصيغة الفعل، ويعني الفهم المبني على التجربة، وفيه أن حاسة العقل عضوها «القلب» انظر (الحكمة في حدود الكلمة ٨١٢) و(معارج القدس للغزالي ٢٨، ٦٢، ١٣٧، ١٩٨).

(1) في المطبوعة ساقطة.

(2) في المطبوعة: ولنسميه.

أمـا الأولـ[ـى][1] : وهـو أن العين لا تبصـر نفسهـا، والعقـل يدرك نفسه، ويدرك[2] غيره، ويدرك صفات نفسه: إذ يدرك نفسه عالِماً وقادراً: ويدرك علم نفسِه ويدرك علمه بعلم نفسه، وعلمه بعلمه بعلم نفسه إلى غير نهاية. وهذه خاصية لا تُتصوّرُ[3] لما يدرك بآلة الأجسام. ووراءه سر يطول شرحه.

الثانية[4]: أن العين لا تبصر ما بَعُد منها ولا ما قرب منها قرباً مفرطاً: والعقل يستوي عنده القريب والبعيـد[5] ويعرج في تـطريفه(١) إلى أعلى السمٰوات رقياً، وينزل في لحظة إلى تخوم(٢) الأرضين هوياً. بل إذا حقّت الحقائق(٣) انكشف أنه منزه عن أن تحوم بجنبات قدسه(٤) معاني القرب والبعد التي[6] تعرِض[7] بين الأجسام، فإنه أنموذج من نور الله عز وجل[8]، ولا يخلو الأنموذج من[9] محاكاة(٥)، وإن كان لا يرقى إلى ذروة المساواة. وهذا ربما هزك للتفطن لسر قوله عليه السلام: «إن الله خلق آدم على صورته»(٦) فلست أرى الآن[10] الخوض في بيانه[11].

الثالثة[12]: أن العين لا تدرك ما وراء الحجب(٧)، والعقل يتصرف في

---

(١) تطريفه: بُعده.
(٢) تخوم: حدود.
(٣) هنا بمعنى ما يجب على وجه الإستحقاق للمقصود.
(٤) للتنزيه.
(٥) محاكاة، مشاكلة. نوع من المشابهة أو المماثلة.
(٦) متفق عليه في البخاري ومسلم عن أبي هريرة. كما رواه الإمام أحمد في مسنده وانظره أيضاً في (فيض القدير ٣/٤٤٧).
(٧) أذكُر أنها وردت بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى ٥١]

(1) ساقطة من المطبوعة والألف يقتضيها السياق.
(2) في المطبوعة ساقطة.
(3) في المخطوطة: يتصور.
(4) في المخطوطة: الثانية.
(5) في المطبوعة ساقطة.
(6) في المطبوعة: الذي.
(7) في المطبوعة يفرض.
(8) في المطبوعة: تعالى.
(9) في المطبوعة: عن.
(10) في المطبوعة ساقطة.
(11) في المطبوعة: فيه الآن.
(12) في المخطوطة: الثالثة.

العرش والكرسي وما وراء حجب السمٰوات، وفي الملأ /٧/ الأعلى(١) والملكوت الأسنى (1)، كتصرفه في عالمه الخاص، ومملكته القريبة، أعني: بدنه الخاص. بل الحقائق كلها لا تحتجب عن العقل. وأما حجاب العقل حيث يحجب فمن نفسه لنفسه بسبب صفات هي مقارنة له تضاهي حجاب العين من نفسه عند تغميض الأجفان. وستعرف هذا في الفصل الثالث من الكتاب.

الرابعة(2): أن العين تدرك من الأشياء ظاهرها وسطحها الأعلى دون باطنها؛ بل قوالبها وصورها دون حَقائقها. والعقل يتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها، ويستنبط سببها وعلتها وغايتها وحكمتها، وأنها ممّ خُلقت(3)، وكيف خُلقت(3)، ولِم خُلقت(3)، ومِن كم معنى جُمِعَ الشيء(4) وركِّبَ، وعلى أي مرتبة في الوجود نزل، وما نسبته إلى خالقه(5) وما نسبته(6) إلى سائر مخلوقاته، إلى مباحث أُخرى(7) يطول شرحها،نرى الإيجاز فيها أولى.

الخامسة (8): أن العين تُبصر بعض الموجودات إذ تقصر عن جميع المعقولات(٢) وعن كثير من المحسوسات: إذ لا تدرك الأصوات، والروائح، والطعوم، والحرارة، والبرودة، والقوى المدركة: أعني قوة السمع والبصر والشم والذوق، بل الصفات الباطنة النفسانية كالفرح، والسرور، والغم، والحزن، والألم، واللذة، والعشق، والشهوة، والقدرة، والإرادة،

(١) الملأ الأعلى: العقول المجردة، والنفوس النورانية بشكل عام، ولكن الجملة تُطلق على مجموعة الملائكة خاصة. انظر قوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ [الصافات: ٨] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [صٓ: ٦٩] وانظر (إحياء علوم الدين ٣/ ١٣ ـ ١٨).

(٢) المعقولات: هنا بمعنى المعنويّات.

(1) في المطبوعة: الرابع.
(2) في المخطوطة: الرابعة.
(3) في المطبوعة التاء ساقطة.
(4) في المطبوعة ساقطة.
(5) في المطبوعة: خالقها.
(6) في المطبوعة: نسبتها.
(7) في المطبوعة: أخر.
(8) في المخطوطة: الخامسة.

والعلم، إلى غير ذلك من موجودات لا تحصى ولا تُعد؛ فهو ضيِّق المجال منحصر[1] المجرى لا تسعه مجاوزة عالم[2] الألوان والأشكال وهما أخس(١) الموجودات: فإن الأجسام في أصلها أخسّ أقسام الموجودات، والألـوان والأشكال من أخس /٨/ أعراضها.

والموجودات[3] كلها مجال العقل؛ إذ يدرك هذه الموجـودات التي عددناها وما لم نعدّها، وهو الأكثر: فيتصرف في جميعها، ويحكم عليها: حكماً يقينياً صادقاً. فالأسرار الباطنة: عنده ظاهرة، والمعاني الخفية: عنده جلية. فمن أين للعين الظاهرة مساماته ومجاراته في استحقاق اسم النور؟ كلا إنها نور بالإضافة إلى غير نور الروح[4]؛ لكنها ظلمة بالإضافة إليه. بل هي جاسوس من جواسيسه؛ وكلت[5] بأخسِّ(١) خزائنه وهي خزانة الألوان والأشكال لترفع إلى حضرته أخبارها فيقضي فيها بما يقتضيه رأيه الثاقب وحكمه النافذ. والحواس الخمس جواسيسه. ولـه في الباطن جـواسيس سواها من خيـال(٢) ووهم(٣) وفكر(٤) وذاكرة(٥) وحفظ(٦)؛ ووراءهم خدم

---

(١) أخس: أقل.

(٢) الخيال: انطباع أولي عن الشيء في الذهن وهو مرتع الأفكار كما أن المثال مرتع الأبصار، وهو قوة تحفظ ما يدركه الحس المشترك من صور بعد غيبوبة، بحيث يشاهدها الحس المشترك كلما التفت إليها، فهـو خزانـة للحس المشترك. أنـظر (كليات ٣٠٦/٢) و(تعريفات ١٠٧).

(٣) الوهم: ما يلقى في الروع، وهو قوة جسمانية للإنسان من شأنها إدراك المعاني الجزئية المتعلقة بالمحسوسات، كشجاعة زيد؛ وهذه القوة هي التي تحكم في الشاة بأن الذئب مهروب منه، وأن الولد معطوف عليه. وبعبارة أخرى: هو إدراك المعنى الجزئي المتعلق بالمحسوس. أنظر (كليات أبي البقاء ١٠٥/٢) و(تعريفات الجرجاني ٧٥).

(٤) الفكر: ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول (تعريفات ١٧٦).

(٥) الذاكرة: قوّة التذكر باسترجاع المعلومات.

(٦) حفظ: حفظ ما تتلقفه الحواس. =

(1) في المطبوعة: مختصر.

(2) في المطبوعة ساقطة.

(3) في المطبوعة فالموجودات.

(4) في المطبوعة: غيرها.

(5) في المطبوعة: وكُله.

وجنود مسخرة له في عالمه الخاص يستسخرهم ويتصرف فيهم استسخار الملك عبيده بل أشد. وشرح ذلك يطول.

وقد ذكرناه في كتاب «عجائب القلب»[١] من كتب «الإحياء»[٢].

السادسة[1]: أن العين لا تبصر ما لا نهاية له، فإنها تبصر صفات الأجسام والأجسام لا تُتصور إلاَّ مُتناهيةً.

والعقل يدرك المعلومات؛ والمعلومات لا يتصور أن تكون متناهية. نعم إذا لاحظ العلوم المفصلة فلا يكون الحاضر الحاصل عنده إلا متناهياً. لكن في قوته إدراك ما لا نهاية له. وشرح ذلك يطول. فإن أردت له مثالاً فخذه من الجليَّات[٣]، فإنه يدرك الأعداد ولا نهاية لها؛ بل يدرك تضعيفات الاثنين والثلاثة وسائر الأعداد ولا يتصور لها نهاية. ويدرك/ ٩/ أنواعاً من النِسب بين الأعداد[2]ولا يتصور التناهي عليها: بل يدرك علمه بالشيء وعلمَهُ بعلمه بالشيء، وعلمه بعلمه بعلمه بالشيء[3]. فقوته في هذا الوجه أيضاً[4] لا تقف عند نهاية.

= فائدة: والإدراك عند الإنسان، إما في الظاهر، وإما في الباطن، فالإدراك الظاهر هو بالحواس الخمس، ووراء المشاعر الظاهرة شباك وحبائلُ لاصطياد ما يأتي به الحس من الصور: من ذلك قوَّة «مصوِّرة» تثبت صور المحسوسات بعد زوالها. وقوة تسمى «وهماً» وهي التي تدرك من المحسوس ما لا يحس، وقوة «حافظة» وهي خزانة ما يدركه الوهم، كما أنَّ المصوِّرة خزانة ما يدركه الحس. وقوة «مفكرة» وهي التي تتسلط على الودائع في خزانتيّ: «المصورة» و«الحافظة» فتخلط بعضها ببعض، وتفصل بعضها عن بعض.

(١) أحد أقسام كتاب «إحياء علوم الدين ٣/٨».

(٢) ويقصد كتابه «إحياء علوم الدين» وهو مجموع موضوعات سمى كلُ جزءٍ منها كتاب.

(٣) الجليات: الواضحات.

(1) في المخطوطة: السادسة.

(2) في المطبوعة ساقطة.

(3) في المطبوعة ساقطة.

(4) في المطبوعة: الواحد.

السابع: أن العين تبصر الكبير صغيراً فترى الشمس في مقدار مجنّ(١)، والكواكب في صور دنانير منثورة على بساط أزرق. والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة؛ ويرى(1) الكواكب ساكنة، بل ترى الظل بين يديه ساكناً(٢)، وترى الصبي ساكناً في مقداره، والعقل يدرك أن الصبي متحرك في النشوء والتزايد على الدوام، والظل متحرك دائماً، والكواكب متحركة(2) في كل لحظة أميالاً كثيرة كما قال صلى الله عليه لجبريل عليه السلام: «أزالت الشمس»؟(٣) فقال: لا، نعم! فقال صلى الله عليه وسلم(3): «كيف»؟ قال: «منذ قلت، لا إلى أن قلت، نعم، قد تحركت(4) مسيرة خمسمائة سنة».

وأنواع غلط البصر كثيرة، والعقل عنها منزه(5).

فإن قلت: نرى العقلاء يغلطون في نظرهم، فاعلم أن فيهم خيالات وأوهاماً، واعتقادات يظنون أحكامها أحكام العقل؛ فالغلط منسوب إليها. وقد شرحنا مجامعها في كتاب «معيار العلم»(٤) وكتاب «محك النظر»(٥).

فأما العقل إذا تجرد عن غشاوة الوهم والخيال لم يُتصور أن يغلط؛ بل يرى(6) الأشياء على ما هي عليه، وفي تجريده عسر(٦) عظيم. وإنما يكمل

---

(١) المِجَنّ: الدرع. من جَنَّ أي سَتَرَ.
(٢) الظل متحرك بحركة الشمس، ولكن لا يُرى لبطء حركته.
(٣) أ زالت الشمس: أي هل تحركت عن منتصف السماء (منتصف النهار يدعى: خط الزوال) وهو بداية دخول وقت صلاة الظهر. أنظر (إحياء علوم الدين ٤/٣٧٩).
(٤) و(٥) انظر (مؤلفاته في المقدمة).
(٦) عُسْرٌ: صعوبة.

(1) في المخطوطة: ويرى.
(2) في المخطوطة: متحركة.
(3) في المطبوعة: فقال.
(4) في المطبوعة: تحرك.
(5) في المطبوعة: منزه عنها.
(6) في المطبوعة: رأى.

تجرده عن هذه النوازع بعد الموت (١)، وعند ذلك ينكشف الغطاء وتتجلى [1] الأسرار ويصادف كل أحد ما قدم من خير أو شرٍ مُحضَراً؛ ويشاهدُ كتاباً ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً، وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾(٢)، وعنده يقال له[2] ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾(٣). وإنما الغطاء غطاء الخيال والوهم وغيرهما. وعنده يقول المغرور بأوهامه الكاذبة[3]، واعتقاداته الفاسدة، وخيالاته الباطلة ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً﴾(٤) ﴿غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾(٤) الآية.

[الخلاصة]

فقد عرفت بهذا أن العين أولى باسم النور من النور المعروف، ثم عرفت أن العقل أولى باسم النور من العين. بل بينهما من التفاوت ما يصح معه أن يقال إنه أولى بل الحق أنه المستحق للاسم دونه.

دقيقة

اعلم أن العقول وإن كانت مبصرة، فليست المبصرات كلها عندها على وتيرة واحدة، بل بعضها يكون عندها كأنها حاضرة[5] كالعلوم الضرورية مثل علمه بأن الشيء الواحد لا يكون قديماً حادثاً، ولا يكون موجوداً معدوماً، والقول الواحد لا يكون صدقاً كذباً[6]، وأن الحكم إذا ثبت للشيء جوازه

---

(١) وذلك من معاني قول الله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ * وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ * لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [سورة ق] والحديد هنا بمعنى: حاد.

(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٣) سورة ق، الآية: ٢٢.

(٤) سورة السجدة، الآية: ١٢.

(٤) سورة فاطر، الآية ٣٧.

(1) في المطبوعة: تنجلي.

(2) في المطبوعة ساقطة.

(3) في المطبوعة ساقطة.

(4) في المطبوعة ساقطة.

(5) في المطبوعة ساقطة.

(6) في المطبوعة بزيادة الواو.

ثبت لمثله، وأن الأخص إذا كان موجوداً كان الأعم واجب الوجود، فإذا وجد السواد فقد وجد اللون، وإذا وجد الإنسان فقد وجد الحيوان(١). وأما عكسه فلا يلزم في العقل، إذ لا يلزم من وجود اللون وجود السواد، ولا من وجود الحيوان وجود الإنسان، إلى غير ذلك من القضايا الضرورية في الواجبات(٢) والجائزات(٣) والمستحيلات(٤).

ومنها ما لا يقارن العقل في كل حال إذا عرض عليه بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه(٥) ويستوري(٦) زناده وينبّه عليه بالتنبيه كالنظريات. وإنما ينبهُهُ كلام الحكمة، فعند إشراق نور الحكمة يصير العقل مبصراً بالفعل بعد أن كان مبصراً بالقوة. وأعظم الحكم(1) كلام الله تعالى. ومن جملة كلامه(٧): القرآن خاصة.

---

(١) هنا بمعنى الحياة. انظر قوله تعالى: ﴿وإنَّ الدَّار الآخِرة لهِيَ الحَيَوان لَوْ كانُوا يَعْلَمُون﴾ [العنكبوت ٦٤].

(٢) الواجبات: جمع (Devoir) وهو الأمر الجازم، ويطلق عند الفقهاء على كل ما يلزم به الشرع، ويثاب المرء على فعله ويعاقب على تركه.

(٣) الجائزات: جمع جائز (Possible) وهو: ما يجوز وجوده وعدمه، وعبَّر عنه الشيخ محمد عبده بقوله: إنه ما لا وجود له، ولا عدم من ذاته، فإن وجد صار حادثاً، وإنما يوجد لموجد (رسالة التوحيد نقلاً عن المعجم الفلسفي ١٩٣) وهو يقابل المستحيل أو الممتنع.

(٤) المستحيلات: جمع مستحيل (Impossible): وهو ما امتنع وجوده ضرورة وهو من اصطلاحات علماء الكلام، بينما يعبَّر عنه بكلمة «ممتنع» لدى علماء الفلسفة عموماً.

(٥) أعطاف: جمع عطف. ﴿ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ﴾ [الحج: ٩].

(٦) يستوري: مادتها اللغوية «ورى» وقد وردت في القرآن الكريم في سبعة مواضع، اثنان منها يوافقان ما ذهب إليه الغزالي أولهما: قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾ [الواقعة: ٧١] وقوله: ﴿فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً﴾ [العاديات: ٢] بمعنى النار والنور والتوهج.

(٧) يسترشد بقول الله تعالى: ﴿قُل لَّو كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ [الكهف: ١٠٩] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّما فِي الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

(1) في المطبوعة: الحكمة.

فتكون منزلة آيات القرآن عند عين العقل منزلة نور عين[1] الشمس عند العين الظاهرة، إذ به يتم الإبصار. فبالحري أن يسمى القرآن نوراً، كما سُمي[2] نور الشمس نوراً فمثال القرآن نور الشمس، ومثال العقل نور العين. وبهذا يُفهم[3] معنى قوله تعالى[4]: ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾(١)، وقوله: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُبِيناً﴾(٢).

تكملة هذه الدقيقة

قد فهمت من هذا أن العين عينان: ظاهرة وباطنة: الظاهرة[5]: من عالم الحس والشهادة(٣)، **والباطنة**: من عالم آخر وهو عالم الملكوت(٤). ولكل عين من العينين شمسٌ ونورٌ عنده تصير كاملة الإبصار إحداهما ظاهرة، والأخرى باطنة؛ والظاهرة من عالم الشهادة: وهي الشمس المحسوسة، والباطنة من عالم الملكوت، وهو القرآن وكتب الله تعالى المنزلة.

ومهما انكشفت لك هذه الأسرار الدقيقة[6] انكشافاً تاماً فقد انفتح لك أول باب من أبواب الملكوت. وفي هذا العالم عجائب يُستحقر بالإضافة إليها عالَمُ الشهادة. و[7] من لم يسافر إلى هذا العالم، وقعد به القصور في

---

(١) سورة التغابن، الآية: ٨.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٧٤.

(٣) الشهادة: المشاهدة.

(٤) الملكوت: عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس (تعريفات ٢٤٦). ثم أما رأيت من ذلك لوامع أو لوائح مما قاله الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢].

(1) في المطبوعة ساقطة.

(2) في المطبوعة: يسمى.

(3) في المطبوعة: نفهم.

(4) في المطبوعة ساقطة.

(5) في المطبوعة: فالظاهرة.

(6) في المطبوعة: انكشف لك هذا.

(7) في المطبوعة: وإن.

حضيض[١] عالم الشهادة فهو بهيمة[٢] بعدُ، محروم عن خاصية الإنسانية؛ بل أضل من البهيمة، إذ لم تُسعد البهيمة بأجنحة الطيران إلى هذا /١٢/ العالم. ولذلك قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٣].

واعلم أن الشهادة بالإضافة إلى عالم الملكوت كالقشر بالإضافة إلى اللب، وكالصورة والقالب بالإضافة إلى الروح، وكالظلمة بالإضافة إلى النور، وكالسّفل بالإضافة إلى العلو. ولذلك سُمي[1] عالم الملكوت: العالم العلوي، والعالم الروحاني، والعالم النوراني. وفي مقابلته السفلي والجسماني والظلماني.

ولا تظن أنّا نعني بالعالم العلوي السمٰوات، فإنها علوٌ وفوقٌ في حق عالم الشهادة والحس، وتشارك[2] في إدراكه البهائم. وأما العبد فلا يفتح له باب الملكوت، ولا يصير ملكوتياً إلا وتُبدّل[3] في حقه الأرض غير الأرض، والسمٰوات، فيصير كلُّ داخلٍ تحتَ الحسِّ والخيال أرضَه، ومن جملته[4] السمٰوات، وكل ما ارتفع عن الحس فسماؤه.

وهذا هو المعراج[٣] الأول لكل سالك ابتدأ سفره إلى قرب الحضرة

---

(١) أسفل: أقل المراتب.

(٢) البهيمة: كلُّ ما لا نطق له، ولا يميِّز، وذلك لما في صوته من الإبهام، ونقص عقله عن التمييز، وهي عبارة كثيراً ما يستعملها الصوفيون، انظر (المعجم الصوفي ٢٢٠) و(كليات أبي البقاء الكفوي ط: دمشق ١/٣٨٩).

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.

(٤) المعراج: شبه سُلَّم أو درجة تعرج عليها الأرواح، والمعارج: المصاعد، وفي القرآن الكريم ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ أي تصعد، وفيه ﴿مِّنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ﴾ أي المصاعد والدَّرج، قال قتادة: ذي المعارج: ذي الفواضل والنعم (لسان العرب ٢/٧٢٧).

(1) في المطبوعة: يسمى.
(2) في المطبوعة: يشارك.
(3) في المطبوعة: يبدل.
(4) في المطبوعة: جملة.

الربوبية[١]. فالإنسان مردود إلى أسفل السافلين[٢]، ومنه يترقى إلى العالم الأعلى[٣]. وأما الملائكة[٤] فإنهم جملة عـالم الملكوت عـاكفون[٥] في حظيرة القُدُسِ[1][٦]، ومنها يُشرفون إلى العالم الأسفل. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم[2]: «إن الله خلق الخلق في ظلمة ثم أفاض عليهم من نوره»[٧] وقال عليه السلام[3]: «إن لله ملائكة هم أعلم بأعمال النـاس منهم»[٨]. والأنبياء إذا بلغ معراجهم المبلغ الأقصى وأشرفوا منه إلى أسفل[4] ونظروا من فوق إلى تحت اطلعوا أيضاً على قلوب العباد وأشرفوا منها[5] /١٣/ على جملة من علوم الغيب: إذ من كان في عالم الملكوت كان عند الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ[6]﴾[٩] - أي من عنده تنزل أسباب الموجودات في عالم الشهادة؛ وعالم الشهادة أثر من آثار ذلك العالم، يجري منه مجرى الظل بالإضافة إلى الشخص، ومجرى الثمرة بالإضافة إلى المثمر، والمسبَّب بالإضافة إلى السبب. ومفاتيح معرفة المسببات لا تؤخذ[7] إلا

---

(١) حضرة الربوبية: الحق جل وعلا.

(٢) أسفل سافلين. انظر (سورة التين، الآية: ٥).

(٣) العالم الأعلى: عالم الملكوت.

(٤) الملائكة: جمع مَلَك. وهم أجسام نورانية.

(٥) عاكفون: من عكف على الشيء يَعْكُفُ وعكِفُ عكفاً وعكوفاً: اقبل عليه مواظباً لا يعرفُ عنه وجهه، منها قوله تعالى: ﴿ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً﴾ أي: مقيماً، والعاكفون في اصطلاح الشريعة: المقيمون في المساجد، قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُم عَاكِفُونَ فِي المَسَاجِدِ﴾ انظر (لسان العرب ٢/٨٥٣).

(٦) حظيرة القدس: للتنزيه.

(٧) انظر الترمذي ٣٨، ١٨.

(٨) لم أجده.

(٩) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(1) في المطبوعة: حضرة القدوس.

(2) في المطبوعة: عليه السلام.

(3) في المطبوعة ساقطة.

(4) في المطبوعة: السفل.

(5) في المطبوعة ساقطة.

(6) في المطبوعة غير موجودة.

(7) في المطبوعة ساقطة.

من الأسباب: ولذلك كان عالم الشهادة مثالاً لعالم الملكوت كما سيأتي في بيان المشكاة والمصباح والشجرة إن شاء الله عز وجل[1]: لأن المسبب لا يخلو عن موازاة السبب ومحاكاته نوعاً من المحاكاة على قرب أو على بعد. وهذا الآن[2] له غوْر عميق. ومن اطلع على كنه حقيقته انكشف له حقائق أمثلة القرآن على يسر.

حقيقة[3] ترجع إلى حقيقة النور

فنقول: إن كان ما يبصر نفسه وغيره أولى باسم النور، فإن كان من جملة ما يبصرُ به غيره أيضاً مع أنه يبصر نفسه وغيره، فهو أولى، باسم النور من الذي لا يؤثر في غيره أصلاً، بل بالحريّ أن يُسمى سراجاً منيراً لفيضان أنواره على غيره. وهذه الخاصية توجد للروح القدسي النبوي إذ تفيض بواسطته أنواع المعارف على الخلائق. وبهذا نفهم معنى تسمية الله محمداً صلى الله عليه وسلم[4] ﴿سِرَاجاً مُنِيراً﴾(١)(٢)، والأنبياء كلهم سُرُج(٣)، وكذلك العلماء، ولكن التفاوت بينهم لا يحصى(٤).

دقيقة

إذا كان اللائق بالذي يُستفاد منه أنوار[5] الإبصار أن يسمى سراجاً منيراً فالذي يُقتبس منه السراج في نفسه جدير بأن يُكَنَّى عنه بالنار. وهذه السُرُج

---

(١) انظر قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾ وهو يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٤٦.

(٣) جمع سراج، والسِّراج لغةً: المصباح الزاهر الذي يُسرج بالليل.

(٤) لا يُحصى: لا يعد، وفي القرآن الكريم ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً﴾ أي أحاط علمه سبحانه باستيفاء عدد كل شيء. انظر (لسان العرب ١/٦٥٦).

(1) في المطبوعة ساقطة.

(2) في المطبوعة: لأن.

(3) في المخطوطة: دقيقة.

(4) في المطبوعة: عليه السلام.

(5) في المطبوعة: نور.

الأرضية إنما تقتبس في أصلها من أنوار عُلوية. والروح[1] القدسي النبوي يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار. ولكن إنما يصير نوراً على نورٍ إذا مسَّته النار.

وبالحريِّ أن يكون مقتَبَسُ الأرواح الأرضيَّة هي الروحُ الإلهية العلوية التي وصفها علي(١) وابن عباس(٢) رضي الله عنهما فقالا: «إن لله ملَكاً له سبعون ألف رأس في كلِّ رأسٍ سبعون ألف[2] وجه في كل وجه سبعون ألف فم في كل فم سبعون ألف[3] لسان يسبح الله تعالى كل واحد منهم بلغة غير لغة الآخر[4]»(٣) وهو الذي قوبل بالملائكة كلهم فقيل يوم القيامة ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا﴾(٤) فهي إذا اعتبرت من حيث يُقتبس(٥) منها السّرجُ الأرضية لم يكن لها مثال إلا النار، وذلك لا يؤنس[5] إلا من جانب الطور(٦).

---

(١) هو أمير المؤمنين الخليفة الراشد الرابع ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم أول من أسلم من الغلمان، ما سجد قطُّ لصنم، بايع أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم ثم بويع، دامت خلافته ست سنوات. استشهد سنة ٤٠ هـ (صفة الصفوة ١/١١٨).

(٢) هو عبد الله بن العباس ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، لازم رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى عنه كثيراً، يُنسب إليه كتاب في تفسير القرآن الكريم، توفي سنة ٦٨ هـ (الإصابة ت: ٤٧٧٢) (صفة الصفوة ١/٣١٤).

(٣) سيأتي تخريجه عند بداية الفصل الثالث.

(٤) سورة النبأ، الآية: ٣٨.

(٥) وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم بمعنى يحاكي ما نحن فيه وذلك في قوله تعالى: ﴿انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ . . .﴾.

(٦) الطور، هنا هو طور سيناء [المؤمنون: ٢٠] وهو الجبل الذي ناجى فيه موسى ربه بين مصر وأيلة.

(1) في المطبوعة: فالروح.

(2) في المطبوعة غير موجودة.

(3) في المطبوعة غير موجودة.

(4) في المطبوعة غير موجودة.

(5) في المطبوعة: يؤانس.

الأنوار السماوية التي تقتبس منها الأنوار الأرضية إن كان لها ترتيب بحيث يقتبس بعضها من بعض، فالأقرب من المنبع الأول أولى باسم النور لأنه أعلى رتبة. ومثال ترتيبه في عالم الشهادة لا تدركه إلا بأن يفرض ضوءُ القمر داخلاً في كوة بيت واقعاً على مرآة منصوبة على حائط، ومنعكساً منها على[1] حائط آخر في مقابلتها، ثم منعطفاً منه إلى الأرض بحيث تستنير الأرض. فأنت تعلم أن ما على الأرض من النور تابع لما على الحائط وما على الحائط تابع لما على المرآة، وما (/١٥) على المرآة تابع لما على القمر، وما في القمر تابع لما في الشمس: إذ منها يشرق النور على القمر. وهذه الأنوار الأربعة مرتبة بعضها أعلى وأكمل من بعض، ولكل واحد مقام معلوم، ودرجة خاصة لا يتعداها.

فاعلم أنه قد انكشف لأرباب البصائر[١] أن الأنوار الملكوتية إنما وُجدت على ترتيبٍ كذلك، وأن المقرَّب هو الأقرب إلى النور الأقصى. فلا يبعد أن تكون رتبة إسرافيل[٢] فوق رتبة جبريل[٣]، فإن[2] فيهم الأقرب لقرب درجته من حضرة الربوبية التي هي منبع الأنوار كلها، وأن فيهم الأدنى، وبينهما درجات تستعصي على الإحصاء. وإنما المعلوم كثرتهم وترتيبهم في مقاماتهم وصفوفهم، وأنهم كما وصفوا به أنفسهم إذ قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ• وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾[٤].

---

(١) أرباب البصائر: أصحاب البصائر.

(٢) إسرافيل: نافخ الصور في المرتين: عند إعلان انتهاء الحياة على الأرض، ومن ثَمَّ عند إعلان القيامة.

(٣) جبريل: الرسول الأمين بالرسالات على الرسل والأنبياء.

(٤) سورة الصافات، الآية: (١٦٥ ـ ١٦٦).

(1) في المطبوعة: إلى.

(2) في المطبوعة: وإن.

دقيقة

إذا عرفت أن الأنوار لها ترتيب فاعلم أنه لا يتسلسل إلى غير نهاية، بل يرتقي إلى **منبع أول**[١] هو النور لذاته وبذاته، ليس يأتيه نور من غيره. ومنه تشرق الأنوار كلها على ترتيبها. فانظر الآن اسم النور أحق وأولى بالمستنير المستعير نوره من غيره، أو بالنّير في ذاته المنير لكل ما سواه؟ فما عندي أنه يخفى عليك الحق فيه. وبه يتحقق أن اسم النور أحق بالنورُ **الأقصى الأعلى** الذي لا نور فوقه، ومنه ينزل النور إلى غيره.

حقيقة

بل أقول ولا أبالي: إن اسم النور على غير النور الأول **مجاز**[٢] محض: إذ كل ما سواه إذا اعتُبرت[1] ذاته فهو في ذاته من حيث ذاته لا نور له: بل نورانيته مستعارة من غيره ولا قوامَ لنورانيته المستعارة بنفسها، بل بغيرها (١٦/) ونسبة المستعار إلى المستعير مجاز محض. أفَتَرَى أن من استعار ثياباً وفرساً ومركباً وسرجاً، وركبه في الوقت الذي أركبه المُعِير، وعلى الحدِّ الذي رسمه لنا[2]، غني بالحقيقة أو بالمجاز؟ وأن المعير هو الغني أو المستعير؟ كلا، بل المستعير فقير في نفسه كما كان. وإنما الغني هو المُعير الذي منه الإعارة والإعطاء، وإليه الاسترداد والانتزاع. فإذن النور الحق هو الذي بيده الخلق والأمر، ومنه الإنارة أولاً،والإدامة ثانياً. فلا شركة لأحد معه في حقيقة هذا الإسم،ولا في استحقاق هذا الإسم[3] إلا من حيث تسميته[4] به، ويتفضل بفضل[5] المالك على عبده إذا أعطاه مالاً ثم سماه

---

(١) منبع أول: هو النور لذاته وبذاته، يعني: هو الله جلَّ وعلا.

(٢) مجاز محض: هو الكلام المستعمل في غير ما وضع له.

(1) في المطبوعة: اعتبر.

(2) في المطبوعة ساقطة. والأصح: له.

(3) في المطبوعة: استحقاقه.

(4) في المطبوعة: يسميه.

(5) في المطبوعة ساقطة.

مالكاً. وإذا انكشف للعبد هذه[1] الحقيقة علم أنه وماله لمالكه على التفرد لا شريك له فيه أصلاً البتة.

حقيقة

مهما عرفت أن النور يرجع إلى الظهور والإظهار ومراتبه، فاعلم أنه لا ظلمة أشد من كتم العدم(١): لأن المظلم سمي مظلماً لأنه ليس يظهر[2] للأبصار، إذ ليس يصير موجوداً للبصير مع أنه موجود في نفسه. فالذي ليس موجوداً لا لغيره ولا لنفسه كيف لا يستحق أن يكون هو الغاية في الظلمة؟ وفي مقابلته الوجود فهو النور: فإن الشيء ما لم يظهر في ذاته لا يظهر لغيره.

والوجود أيضاً[3] ينقسم إلى ما للشيء في[4] ذاته، وإلى ما له من غيره. وما له الوجود من غيره فوجوده مستعار لا قوام له بنفسه. بل إذا اعتُبر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض. وإنما هو موجود من حيث نسبته إلى غيره، وذلك ليس بوجودٍ حقيقي كما (١٧/) عرّفت في مثال استعارة الثوب من الغنيِّ [المعير][5]. فالموجود الحق هو الله تعالى، كما أن النور الحق هو الله تعالى.

حقيقة الحقائق

من ها[6] هنا ترقّى العارفون من حضيض المجاز إلى يفاع(٢) الحقيقة، واستكملوا معراجهم فرأوا بالمشاهدة العيانية أن ليس في الوجود إلا الله

---

(١) كتم العدم: وهو العدم المطلق، وهو محال. وفي هذا نقض كلِّ عقائد المجوس ومن شايعهم في موضوع النور والظلمة.

(٢) يفاع: مادته اللغوية (ف وع) ويُقال لأول الشيء، وارتفاعه (عُلُوّه). وفي الحديث=

(1) في المطبوعة ساقطة.

(2) في المطبوعة: ليس للإبصار إليه وصول.

(3) في المطبوعة ساقطة.

(4) في المطبوعة: من.

(5) في المطبوعة ساقطة.

(6) في المطبوعة ساقطة.

تعالى، وأن﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾[1] لا أنه يصير هالكاً في وقت من الأوقات؛ بل هو هالك أزلاً وأبداً لا يتصور إلا كذلك؛ فإن كل شيء سواه إذا اعتُبِر ذاته من حيث ذاته فهو عدم محض؛ وإذا اعتبرته[1] من الوجه الذي سرى[2] إليه الوجود من الأول الحق رؤي موجوداً لا في ذاته لكن من الوجه الذي يلي موجده، فيكون الموجود وجه الله تعالى فقط. ولكل شيء وجهان: وجه إلى نفسه ووجه إلى ربه؛ فهو باعتبار وجه نفسه عدم، وباعتبار وجه الله تعالى موجود، فإذن لا موجود إلا الله تعالى ووجهه. فإذن﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾[3] أزلاً وأبداً. ولم يفتقر هؤلاء[2] إلى قيام[4] القيامة ليسمعوا نداء الباري تعالى ﴿لِمَنِ المُلْكُ اليَوْمَ ؟ للهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ﴾[3]. بل هذا النداء لا يفارق سمعهم أبداً، ولم يفهموا من معنى قوله: «الله أكبر» أنه أكبر من غيره، حاش لله، إذ ليس في الوجود معه غيره حتى يكون أكبر منه؛ بل ليس لغيره وجود إلا من الوجه الذي يليه. فالموجود وجهه فقط. ومحال أن يقال إنه أكبر من وجهه. بل معناها أنه أكبر من أن يقال له أكبر بمعنى الإضافة والمقايسة[4]، وأكبر من أن يدرك غيره كنه كبريائه، نبيّاً كان أو مَلَكاً. بل لا يعرف الله تعالى[5] كنه معرفته إلا الله. لأن[6] كل معروف (/١٨) داخل تحت/سلطان العارف واستيلائه دخولاً ما؛

= الشريف: «احْبسوا صبيانكم حتى تذهب فوعَةُ العشاء» أي: أوله. أنظر (لسان العرب ٢/١١٤٤).

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٢) انظر سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٣) سورة غافر، الآية: ١٦.

(٤) المقايسة: النسبة.

(1) في المطبوعة: اعتبر.

(2) في المطبوعة: يسري.

(3) إضافة من هامش المخطوطة.

(4) في المطبوعة: يوم.

(5) في المطبوعة ساقطة.

(6) في المطبوعة: بل.

وذلك ينافي الجلال والكبرياء. وهذا له تحقيق ذكرناه في كتاب «**المقصد الأسنى** في شرح[1] أسماء الله الحسنى»(١).

إشارة

العارفون(٢) ـ بعد العروج إلى سماء الحقيقة ـ اتفقوا على أنهم لم يروا في الوجود إلا الواحد الحق. لكن منهم من كان له هذه الحال **عرفاناً علمياً**(٣)، ومنهم من صار له ذلك حالاً(٤) **ذوقياً**. وانتفت عنهم الكثرة بالكلية واستغرقوا **بالفردانية** المحضة، واستوفيت فيها عقولهم، فصاروا كالمبهوتين فيه ولم يبق فيهم متسع لا(٥) لذكر غير الله، ولا لذكر أنفسهم أيضاً. فلم يكن عندهم إلا الله تعالى[2] فسكروا سكراً رُفع[3] دونه سلطان عقولهم، فقال أحدهم «أنا الحق»(٥) وقال الآخر «سبحاني ما أعظم شاني!»(٦) وقال آخر: «ما في الجبة إلا الله»(٧).

---

(١) وهو من كتب الإمام الغزالي. انظر الصفحات (١١ ـ ١٢ ـ ٤٧ ـ ٤٨ ـ ٥٤) تحقيق شحادة ط. بيروت ١٩٧١.

(٢) العارفون: جمع عارف وهو من أشهده الرب عليه. (تعريفات ٢٩٦). (وهذا من اصطلاحات الشيخ محيي الدين بن عربي).

(٣) وهو كل ما استقر في النفس بشهادة العقل وموافقة العلم (انظر تعريفات ١٥٤).

(٤) الحال عند المتصوفة: معنى يَرِدُ على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طَرَبٍ أو حزنٍ أو قبضٍ أو بسطٍ أو هيئة. (تعريفات ٨٥).

(٥) هذا من أقوال الحلاج المشهور الذي أعدم في بغداد سنة ٣٠٩ هـ في بيت شعر:

أنا الحق، والحق حقٌّ لابسٌ ذاته فما ثَمَّ فرقُ

(نقله أحمد بن فاتك) (ماسينيون: أخبار الحلاج ١٠٨).

(٦) هذا التعبير قاله «أبو يزيد البسطامي» وهو متصوِّف فارسي توفي سنة ٢٣٤ هـ.

(٧) قاله: الشيخ محيي الدين بن عربي. وللشيخ ناصر الدين الألباني رد عليه. أنظر كتابه (نصب المجانيق لنسف الغرانيق) بأكمله. ويقال أن قائلها هو أبو سعيد بن أبي الخير، متصوف فارسي توفي سنة ٤٤٠ هـ. أنظر (الترقي الصوفي لدى الشيخ أبي سعيد).

(1) في المطبوعة: معاني.

(2) في المطبوعة ساقطة.

(3) في المطبوعة: دُفع.

وكلام العشاق في حال السكر يُطوَى ولا يحكى. فلما خف عنهم سكرهم ورُدُّوا إلى سلطان العقل[١] الذي هو ميزان الله في أرضه، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد[٢] بل شبه الإلحاد[١] مثل قول العاشق[٣] في حال فرط عشقه.

أَنَــا مَنْ أَهْـوَىٰ وَمَنْ أَهْـوَىٰ أَنَـا نَحْنُ رُوحَانِ حَـلَلْنَـا بَـدَنَـا[(4)(٤)]

ولا يبعـد أن يفاجىء الإنسـان مرآةً فينـظر فيهـا ولم يـر المـرآة قط، فيظن أن الصورة التي يراها[(3)] هي صورة المرآة متحدة بها، ويرى الخمر في الزجاج فيظن أن الخمر لون الزجاج. وإذا صار ذلك عنده مألوفاً ورسخ فيه قدمه استغفر وقال: (/ ١٩).

---

(١) وهو ما يُعبِّر عنه باسم (الشَّطح).
انظر (ابن عربي في الفتوحات المكية ٢/١٩٥) و(التعريفات ٨٦) وهكذا نجد أن الإمام الغزالي يجد عذراً لأبي يزيد البسطامي في مقالته، فهو إمَّا قد تكلم باسم الحق، أو عبَّر عن تزيه مطلق. أنظر أيضاً (المقصد الأسنى ١٦٥) وقد أجاب أبو يزيد مرةً وقد سُئِل بمَ نِلْتَ ما نلت؟ فقال: إني انسلخت من نفسي كما تنسلخ الحية من جلدها. ثم نظرتُ إلى ذاتي فإذا أنا هو، انظر (تحقيق ما للهند من مقولة ٦٦).

(٢) الاتحاد: هو شهود الوجود الحق الواحد المطلق الذي الكل موجود بالحق فيتحد به الكلّ من حيث كون كلّ شيء موجوداً به معدوماً بنفسه. لا من حيث أن له وجوداً خاصًّا اتحد به فإنه مُحال (تعريفات ٦) أما عند ابن عربي فالاتحاد: تصيُّرُ ذاتين واحدة ولا يكون إلا في العدد وهو محال (المصدر نفسه ٣٩٤) وانظر المقصد الأسنى (١٦٤ ـ ١٧١).

(٣) العاشق: هو المفرط في حُبِّه، انظر (كليات ٢/٢٥٠).

(٤) وهذا بيت شعرٍ من أصلِ بيتين مشهورين للحلاج. انظر (ديوانه ص ٩٣) لماسينيون:
أنــا من أهـوى ومن أهــوى أنـا نـحـن روحــان حــللنـا بــدنــا
فــإن رأيـتـنــا فـقــد رأيـتــه وإن رأيـتــه فـقــد رأيــتـنــا
ومن ذلك قوله أيضاً:
لأنــوارِ نــورِ الـنــورِ في الخَـلْقِ أنــوارُ ولـلـسِّـرِّ في سِرِّ المـســرِّيــن أســرارُ
(انظر ماسينيون ـ أخبار الحلاج: ٥٢)

(1) في المخطوطة: الإلحاد.
(2) في المطبوعة الجملة بأكملها ساقطة. (3) في المطبوعة: رآها.

رَقَّ الـزجـاجُ وراقتِ(1) الْخَمْـرُ فَتَشَـابهـا وَتَشَـاكَـلَ الأمْـرُ
فَكَـأَنَّمـا خَمْـرٌ وَلاَ قَـدَحٌ وَكـأَنَّما قَـدَحٌ وَلاَ خَمْرُ (1)

وفرق بين أن يقول: الخمر قدح، وبين أن يقول: كأنه قدح. وهذه الحالة إذا غلبت سميت بالإضافة إلى صاحب الحالة «فناء»(٢)، بل «فناء الفناء»: لأنه فني عن نفسه وفني عن فنائه، فإنه ليس يشعر بنفسه في تلك الحال ولا بعدم شعوره بنفسه. ولو شعر بعدم شعوره بنفسه، لكان قد شعر بنفسه. وتسمى هذه الحالة بالإضافة إلى المستغرق به بلسان المجاز(٣) اتحاداً أو بلسان الحقيقة توحيداً(٤). ووراء هذه الحقائق أيضاً أسرار يطول الخوض فيها.

---

(١) هذه الابيات لشاعر الخمر والنساء والمجون أبو نواس المتوفى في بغداد سنة ١٩٨ هـ أو ٢٠٠ هـ. أنظر هذين البيتين أيضاً في «إحياء علوم الدين ٢/٢٥٧ و٣/٣٤٧» وفي المقصد الأسنى ١٦٧. وقد أنعم الله تعالى على أبي نواس بتوبة في آخر أيامه كتب فيها قصائد رقيقة في الرقائق والزهد والتعبد (انظر ديوانه).

(٢) الفناء: سقوط الأوصاف المذمومة وهو إما أن يأتي بكثرة الرياضات، أو بعدم الإحساس بعالم الملك والملكوت، وهو بالإستغراق في عظمة الباري. (تعريفات ١٧٦).

(٣) المجاز: هو اللفظ المستعمل في غير ما وضع له. انظر (التعريفات ـ الجرجاني ٢١٤، ٢١٥).

(٤) التوحيد. تجريد الذات الإلهية عن كلّ ما يتصور في الأفهام، ويتخيَّل في الأوهام والأذهان (تعريفات ٧٣).

(1) في المخطوطة: رقّت.

خاتمة

لعلك تشتهي أن تعرف وجه إضافة نوره إلى السموات والأرض؛ بل وجه كونه في ذاته(١) نور السموات والأرض، فلا ينبغي أن يخفى ذلك عليك بعد أن عرفت أنه النور ولا نور سواه وأنه كل الأنوار، وأنه النور الكلّي، لأن النور عبارة عما تنكشِف[1] به الأشياء، وأعلى منه ما ينكشف به وله، وأعلى منه ما ينكشف به وله ومنه، وأن الحقيقي منه ما ينكشف به وله ومنه وليس فوقه نور منه اقتباسه واستمداده: بل ذلك له في ذاته من ذاته لذاته لا من غيره. ثم عرفتَ أن هٰذا لن يتصف به إلا النور الأول. ثم عرفتَ أن السمٰوات والأرضَ مشحونةٌ نوراً من طبقتي النور: أعني المنسوبَ إلى البصر والبصيرة: أي إلى الحس والعقل. أما البصريُّ فما تشاهده في السماء[2] من الكواكب والشمس والقمر، وما تشاهده[3] في الأرض من الأشعة المنبسطة على كل ما في[4] الأرض حتى ظهرتْ به (٢٠/) الألوان المختلفة خصوصاً في الربيع، وعلى كل حال في الحيوان[5] والمعادن وأصناف الموجودات. ولولاها لم يكن للألوان ظهور، بل وجود. ثم سائر ما

---

(١) يُثبت ما أثبته من بعده ابن تيمية. انظر له (تفسير سورة النور تحقيق صلاح عزام ص ١٢٧ ـ ١٤٢) والصفحة (   ) من هذا الكتاب.

(1) في المطبوعة: ينكشف.

(2) في المطبوعة: السموات.

(3) في المطبوعة: نشاهده.

(4) في المطبوعة: على.

(5) في المطبوعة: الحيوانات.

يظهر للحس من الأشكال والمقادير يدرَكُ تبعاً للألوان ولا يتصور إدراكها إلا بواسطتها.

وأما الأنوار العقلية المعنوية فالعالم الأعلى(١) مشحون بها، وهي جواهر الملائكة، والعالم الأسفل مشحون بها وهي الحياة الحيوانية ثم الإنسانية، وبالنور الإنساني السفلي، ظهر نظام عالم السفل(٢) كما بالنور العُلوي(1) الملكي ظهر نظام عالم العلوي(2). وهو المعنيّ بقوله: ﴿أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾(٣) وقال تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾(٤) وقال: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ ٱلْأَرْضِ﴾(٥)، وقال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٦).

فإذا «عرفتَ هذا عرفتَ أن العالم بأسره مشحون بالأنوار الظاهرة البصرية، والباطنة العقلية، ثم عرفتَ أنّ السّفلية فائضة بعضُها من بعض فيضان النور من السّراج، وأن السّراج هو الروح النبوي القدسي، وأن الأرواح النبوية القدسية مقتبسة من الأرواح العلوية اقتباس السنراج من النور؛ وأن العلويات بعضها مقتبسة من البعض، وأن ترتيبها بترتيب(3) مقاماتٍ(٧). ثم ترتقي(4) جملتها إلى نور الأنوار ومعدنها ومنبعها الأول؛ وأن ذلك هو الله

(١) الأعلى: كل ما سكن في السماء.
(٢) السفل: عالم الأرض.
(٣) سورة هود، الآية: ٦١.
(٤) سورة النور، الآية: ٥٥.
(٥) سورة النمل، الآية: ٦٢.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٧) مقامات: جمع مقام وهو: عبارة عما يوصل إليه بنوع تصرّف، ويتحقق به بضرب تطلّب ومقامات تكلّف، فمقام كلّ واحد وضع إقامته عند ذلك (تعريفات ٢٤٤).

(1) في المطبوعة ساقطة.
(2) في المطبوعة: عالم العلو.
(3) في المطبوعة: ترتيب.
(4) في المطبوعة: ترقي.

عز وجل[1] وحده لا شريك له، وأن سائر الأنوار مستعارة، وإنما الحقيقي نوره فقط؛ وأن الكل نوره، بل هو الكل، بل لا نورية لغيره إلا بالمجاز. فإذن لا نور إلا نوره، وسائر الأنوار أنوار من الوجه الذي يليه لا من ذاتها[١]. فوجه كل ذي وجه إليه ومول[٣] شطره: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾[٢]. فإذن لا إله إلا هو: فإن الإله عبارة عما الوجوه مولية نحوه بالعبادة والتأله: أعني وجوه القلوب فإنها الأنوار. بل كما لا إله إلا هو، فلا هو إلا هو: لأن «هو» عبارة عما إليه إشارة كيفما (٢١/) كان، ولا إشارة إلا إليه. بل كل ما أشرت إليه فهو بالحقيقة إشارة إليه وإن كنت لا تعرفه أنت [2] لغفلتك عن حقيقة الحقائق التي ذكرناها، فاعلم أنك إذا أشرت إلى نور الشمس فكأنما أشرت إلى الشمس[3]، ولا إشارة إلى نور الشمس بل إلى الشمس. فكل ما في الوجود فنسبته إليه في ظاهر المثال كنسبة النور إلى الشمس. فإذن «لا إله إلا الله» توحيد العوام، «ولا إله إلا هو» توحيد الخواص، لأن هذا أعم[4]، وأخص، وأشمل، وأحق، وأدق، وأدخل بصاحبه في الفردانية المحضة، والوحدانية الصرفة، ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية. وليس وراء ذلك مرقى، إذ الترقي لا يتصور إلا بكثرة، فإنه نوع إضافة يستدعي ما منه الإرتقاء وما إليه الإرتقاء. وإذا ارتفعت الكثرة حقت الوحدة، وبطلت الإضافات، وطاحت الإشارات، ولم يبق علوّ ولا سفل، ولا نازل ولا مرتفع[5]: واستحال الترقي واستحال[6] العروج. فليس وراء الأعلى علوّ ولا

---

(١) عبارة (لا من ذاته): تعتبر رداً لكل من يتهم الإمام الغزالي بوحدة الوجود.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١١٥.

(1) في المخطوطة: عز وجلّ.
(2) في المخطوطة زيادة: هذا.
(3) فاعلم أنك إذا أشرت إلى نور الشمس فكأنما أشرت إلى الشمس: زيادة من المخطوطة.
(4) في المطبوعة: أتم.
(5) في المطبوعة: وسفل ونازل ومرتفع.
(6) في المخطوطه: واستحال.

مع الوحدة كثرةٌ، ولا مع انتفاء الكثرة عروج. فإن كان من تغير حالٍ. فالنزول إلى سماء الدنيا: أعني: بالإشراف من علوٍ إلى سفلٍ لأن الأعلى له أسفل وليس له أعلى. فهذه هي غاية الغايات ومنتهى الطِّلْبات: يعلمه من يعلمه، وينكره من يجهله، وهو «من العلم الذي هو كهيئة المكنون الذي لا يعلمه إلا العلماء بالله. فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغِرّة بالله» ولا يبعد أن قال العلماء إن النزول إلى السماء الدنيا هو نزول مَلَك: فقد توهم بعض العارفين(1) ما هو أبعد منه؛ إذ قال هذا المستغرق بالفردانية أيضاً له نزول إلى السماء الدنيا: فإن ذلك هو نزوله إلى استعمال الحواس أو تحريك الأعضاء. وإليه الإشارة بقوله: «صرتُ سمْعَه الذي يسمع به، وبصرَهُ الذي يُبصر به ولسانه الذي يُنْطِقُ به»(١). فإذا كان هو سمعه وبصره ولسانه، فهو السامع والباصر والناطق إذن لا غيره؛ وإليه الإشارة بقوله: «مرضتُ فلم تعدني»(٢) الحديث.

فحركات هذا الموحّد من السماء الدنيا، وإحساساته كالسمع والبصر من سماءٍ فوقَهُ، وعقلُه فوق ذلك. وهو يترقى من سماء الخلق(2) إلى منتهى معراج الخلائق، ومرتبةُ(3) الفردانية إلى(4) تمام سبع طبقات ثم بعده يستوي(٣) على عرش الوحدانية، ومند يدبّر الأمر لطبقات سمواته(٤):فربما نظر

---

(١) الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوله «قال الله تعالى: من آذى لي ولياً فقد آذنته بالحرب...» في «صحيح البخاري ١٣١/٨».

(٢) حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مرضت فلم تعدني» صحيح مسلم - (كتاب البر ٤٣).

(٣) انظر السورة ٦٧، الآية: ٣، والسورة ٧١، الآية: ١٥.

(٤) انظر السورة ١٠، الآية: ٣ و٣١، والسورة ١٣، الآية: ٢، والسورة ٣٢، الآية: ٥.

(1) في المطبوعة: توهم العلماء.

(2) في المطبوعة: العقل.

(3) في المخطوطة: مرتبة.

(4) في المخطوطة ساقطة.

الناظر إليه فأطلق القوْل بأن الله خلق آدم على صورة الرحمن(١)، إلى أن يُمعن النظر فيعلم أن ذلك له تأويلٌ كقول القائل: «أنا الحق» و«سبحاني» بل كقوله صلى الله عليه وسلم[1]: «مرضتُ فلم تعدني» و«كنت سمعه وبصره ولسانه»(٢). وأرى الآن قبض عنان[2] البيان فما أراك تطيق من هذا الفن[3] أكثر من هذا القدر.

(مساعدة)

لعلك لا تسمو إلى هذا الكلام بهمتك، بل يقصر دون ذروته فهمك[4]، فخذ إليك كلاماً أقرب إلى فهمك وارفق[5] لضعفك.

واعلم أن معنى كونه نور السمٰوات والأرض تعرفه بالنسبة إلى النور الظاهر البصري. فإذا رأيت أنوار الربيع وخضرته مثلاً في ضياء النهار فلست تشك في أنك ترى الألوان. وربما ظننت أنك لست ترى مع الألوان غيرها، فإنك تقول لست أرى مع الخضرة غير الخضرة، ولقد أصر على هذا قوم فزعموا أن النور لا معنى له، وأنه ليس مع الألوان غير الألوان، وأنكروا وجود النور مع أنه أظهر الأشياء، وكيف لا وبه تظهر الأشياء، وهو الذي يبصر (٢٣/) في نفسه ويبصَرُ به غيره كما سبق لك[6] لكن عند غروب الشمس، وغيبة السراج، ووقوع الظل، أدركوا تفرقة ضرورية بين محل الظل، وبين موقع الضياء، فاعترفوا بأن النور معنيٌ وراء الألوان يدرَك مع الألوانِ حتى كأنه لشدة اتحاده[7] لا يدرَك، ولشدة ظهوره يخفى. وقد تكون

(١) انظر (ص ٨٣) الحاشية (٦).
(٢) سبقت قبل صفحة.

(1) في المخطوطة: كقوله: صلى الله عليه وسلم.
(2) في المطبوعة ساقطة.
(3) في المطبوعة: القدر.
(4) في المطبوعة: همتك.
(5) في المطبوعة: أوفق.
(6) في المطبوعة ساقطة.
(7) في المخطوطة: اتحاده.

شدة الظهور سببُ الخفاء[١]. والشيء إذا جاوز حده انعكس إلى[1] ضده.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن أرباب البصائر ما رأوا شيئاً إلا رأوا الله معه[٢]. وربما زاد على هذا بعضهم فقال: «ما رأيت شيئاً إلا رأيت الله قبله»[٣] لأن منهم من يرى الأشياء به ومنهم من يرى الأشياء فيراه بالأشياء. وإلى الأول الإشارة بقوله عز وجل[1]: ﴿**أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[٤]؛ وإلى الثاني الإشارة بقوله عز وجل[1]: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ**﴾[٤]؛ فالأول صاحب مشاهدة، والثاني صاحب استدلال بآياته[2] عليه: والأول: درجة الصدّيقين، والثاني: درجة العلماء الراسخين، وليس بعدهما إلا درجة الغافلين المحجوبين.

---

(١) كقوله تعالى: ﴿ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخفيها﴾ وقوله جلَّ شأنه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ الظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾.

(٢) وهذا ما عبّر عنه القاشاني بقوله: إن الأعيان شؤون ذاتية ظهرت في الحضرة الواحدية بحكم العالمية، فهي معلومات معدومة العين أبداً. إلا أن وجود الحق ظهر فيها فهي مع كونها ممكنات معدومة، لها آثار في الوجود الظاهر بها، وبصورها المعلومة، والأفعال والتأثيرات ليست إلا تابعة للوجود إذ المعدوم لا يؤثر، فلا فاعل ولا موجد إلا الحق تعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ وقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ فأثبت أنه رابع ثلاثة، ونفى أنه ثالث ثلاثة، لأنه لو كان أحدهم لكان ممكناً مثلهم، تعالى عن ذلك وتقدّس، أما إذا كان رابعهم كان غيرهم باعتبار الحقيقة، عينهم باعتبار الوجود، أو غيرهم باعتبار تعيناتهم، عينهم باعتبار حقيقتهم أو غيرهم باعتبار الذات، وعينهم باعتبار الصفات. انظر (اصطلاحات صوفية ٨٠) بتصرف.

(٣) فإذا رأيت ورقة شجر مثلاً رأيت فيها من الله حكمة وعلم وقدرة وإرادة ورحمة وغير ذلك. وهذا من أقوال عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما. (الجهر بالدعوة لابن عربي ص ٥٥).

(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(1) في المطبوعة: علي.

(2) في المطبوعة: تعالى. (3) في المطبوعة: الاستدلال.

فإذا[1] قد عرفتَ هذا فاعلم أنه كما ظهر كل شيء للبصر بالنور الظاهر، فقد ظهر كل شيء للبصيرة الباطنة بالله. فهو مع كل شيء لا يفارقه ثم يُظهر كل شيء، كما أن النور مع كلٍ شيء وبه يظهر. ولكن بقي ها هنا تفاوت: وهو أن النور الظاهر يُتصور أن يغيب بغروب الشمس ويُحجَب حتى يظهر الظل، وأما النور الإلٓهي الذي به يُظهر كل شيء[١]، لا يُتصور غيبته بل يَستحيل تغيره. فيبقى مع الأشياء دائماً، فانقطع طريق الاستدلال بالتفرقة. ولو تُصُوِّرتْ[2] غيبته لانهدت السمٰوات والأرض، ولأُدرك به من التفرقة ما يُضْطَّر معه إلى المعرفة بما به ظهرت الأشياء. ولكن (/٢٤/ب) لَمَّا تساوت الأشياء كلها على نمط واحد في الشهادة على وحدانية خالقها إذ كل شيء يسبّح بحمده لا بعض الأشياء، وفي جميع الأوقات لا في بعض الأوقات[3]، ارتفعت المعرفة[4] وخفي الطريق: إذ الطريق الظاهر معرفة الأشياء بالأضداد؛ فما لا ضد له ولا تغير له بتشابه[5] الأحوال في الشهادة له. فلا يبعد أن يخفى ويكون خفاؤه لشدة جلائه والغفلة عنه لإشراق ضيائه. فسبحان من اختفى عن الخلق لشدة ظهوره، واحتجب عنهم لإشراق نوره[٢].

وربما أيضاً[6] لم يفهم كنه هذا الكلام بعضُ القاصرين، فيفهم من قولنا «إن الله مع كل شيء كالنور مع الأشياء» أنه في كل مكان؛ تعالى

---

(١) يؤكد بأن معنى النور، أي: مُظهر الأشياء ومن العدم.

(٢) انظر قول الله تعالى: ﴿هُوَ الأَوَّلُ والآخِرُ الظَّاهِرُ والْبَاطِنُ﴾.

(1) في المطبوعة: وإذا.

(2) في المطبوعة: ولو تُصُوِّر.

(3) عبارة إذ كل شيء يسبح بحمده لا بعض الأشياء، وفي جميع الأوقات لا في بعض الأوقات: ساقطة من المطبوعة. لكنها وردت في الهامش إشارة إلى نسخة مخطوطة أخرى.

(4) في المخطوطة: ارتفعت المعرفة.

(5) في المطبوعة: تتشابه.

(6) في المطبوعة: وربما لم يفهم أيضاً.

وتقدس عن النسبة إلى المكان. بل لعل الأبعد عن إثارة هذا الخيال أن نقول إنه قبل كل شيء؛ وإنه فوق كل شيء؛ وإنه مُظهِر كل شيء. والمظهر لا يفارق المظهَر في معرفة صاحب البصيرة. فهو الذي نعني بقولنا إنه مع كل شيء.

ثم لا يخفى عليك أيضاً أن المظهِر قبل المظهَر وفوقه مع أنه معه[1]: لكنه معه بوجهٍ وقبله بوجهٍ. فلا تظنَّن أنه متناقض، واعتبر بالمحسوسات التي هي درجتُك في العرفان؛ وانظر كيف تكون حركة اليد مع حركة ظل اليد وقبلها أيضاً. ومن لم يتسع صدره لمعرفة هذا فليهجر هذا النمط من العلم، فلكل علم رجال[1] وكلٌّ ميسّر لما خلق له[2].

---

(١) عبارة تشبه الكلام المأثور أو الأمثال، ولم أجد لها أصل.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، والترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأيضاً في مسند أحمد وأبي داود عن عمران بن حصين. أنظر (الفتح الكبير للسيوطي ٢/ ٣٣٠) كما أورده شيخنا ناصر الدين الألباني في كتابه صحيح الجامع الصغير ٤/ ١٨٢: طبع المكتب الإسلامي ١٩٧٩ مؤكداً صحته. وانظر كنز العمال ١/ ٢٠.

(1) في المطبوعة: أنه معه بوجه.

الفصل الثاني

في بيان مثال المشكاة والمصباح والزجاجة والشجرة والزيت والنار

ومعرفة هذا تستدعي[1] تقديم قطبين يتسع المجال فيهما إلى غير حد محدود. لكني أشير إليهما بالرمز والاختصار (/٢٥):

أحدهما: في بيان سر التمثيل ومنهاجه ووجه ضبط أرواح المعاني بقوالب الأمثلة، ووجه كيفية المناسبة بينها، وكيفية الموازنة بين عالم الشهادة التي منه تتخذ طينة الأمثال، وعالم الملكوت الذي منه تُستنزل أرواح المعاني.

والثاني: في طبقات أرواح الطينة البشرية ومراتب أنوارها؛ فإن هذا المثال مسوقٌ لبيان ذلك؛ إذ قرأ ابن مسعودٍ «مثل نور قلب من آمن[2] كمشكاةٍ»[١].

القطب الأول: في سر التمثيل ومنهاجه:

اعلم أن العالم عالمان: روحاني وجسماني: وإن شئت قلت: حِسي

(١) لم أجد هذه القراءة بين القراءات العشر، ولعلها من القراءات الشاذة، وهذا مشهور عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(1) في المطبوعة: يستدعي.

(2) سقط معظم هذا السطر من المخطوطة: وجاء هكذا: قرأ ابن مسعود: «مثل نور قلب المؤمن كمشكاة» دون الباقي. وأظنه ليس بموجود أصلاً لدى المؤلف وهي زيادة من النساخ في المخطوطة التي أُخذت عنها المطبوعة، وهذا محتمل لمعرفة أغلب النساخ بالقراءات.

وعقلي؛ وإن شئت علوي وسِفلي. والكلُّ متقارب، وإنما يختلف[1] باختلاف الاعتبارات:

فإذا اعتبرتهما في أنفسهما قلت: جسماني وروحاني.

وإذا[2] اعتبرتهما بالإضافة إلى العين المدركة لهما قلت: حسيٌّ وعقلي.

وإن اعتبرتهما بإضافة أحدهما إلى الآخر قلت: علوي وسفلي.

وربما سمّيت أحدهما عالم الملك والشهادة، والآخر عالمُ الغيب والملكوت.

ومن يطلب[3] الحقائق من الألفاظ ربما تحير عند كثرة الألفاظ تخيّل كثرة المعاني. والذي تنكشف له الحقائق يجعل المعاني أصلاً والألفاظ تابعاً. وأمر الضعيف بالعكس منه[4]، إذ يطلب الحقائق من الألفاظ. وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(١).

وإذ[5] عرفت معنى العالَمين فاعلم:

أن العالم الملكوتي: عالم غيب؛ إذ هو غائب عن الأكثرين.

والعالم الحسي: عالم شهادة إذ يشهده الكافة.

والعالم الحسي مَرْقاةٌ إلى العقلي. ولو[6] لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسدَّ (/٢٦) طريق الترقي إليه. ولو تعذر ذلك لتعذر السفر إلى حضرة الربوبية والقرب من الله تعالى. فلم يقرب من الله تعالى أحدٌ ما لم يطأ بحبوحة حظيرة القدس. والعالم المرتفع عن إدراك الحس والخيال. هو الذي نعنيه بعالم القدس. وإذا اعتبرنا جملته بحيث لا يخرج منه شيء ولا يدخل فيه

(١) سورة الملك، الآية: ٢٢.

(1) في المطبوعة: تختلف.

(2) في المخطوطة: وإذا.

(3) في المطبوعة: ومن نظر إلى.

(4) زيادة «منه»: من المخطوطة.

(5) هنا كلمة «قد»: في المطبوعة.

(6) في المطبوعة: فلو.

ما هو غريب منه سميناه حظيرة القدس. وربما سمينا الروح البشري الذي هو مجرى لوائح القدس «الوادي المقدس»[١]. ثم هذه الحظيرة فيها حظائر بعضها أشد إمعاناً في معاني القدس. ولكن لفظ الحظيرة يحيط بجميع طبقاتها. فلا تظنن أن هذه الألفاظ طامات غير معقولة عند أرباب البصائر.

واشتغالي الآن بشرح كل لفظ مع ذكره يصدني عن المقصد. فعليك التشمير لفهم هذه الألفاظ. فأرجع إلى الغرض وأقول:

لما كان عالم الشهادة[٢] مرقاة إلى عالم الملكوت[٣]، وكان سلوك الصراط المستقيم عبارة عن هذا الترقي؛ وقد يُعبَّرُ عنه بالدين وبمنازل الهدى ـ فلو لم يكن بينهما مناسبةٌ واتصال لما تُصوِّرِ الترقي من أحدهما إلى الآخر ـ فجعلت[1] الرحمةُ الإلهيةُ عالمَ الشهادة على موازنةِ عالم الملكوت: فما من شيء من هذا العالم إلا وهو مثال لشيء من ذلك العالم. وربما كان الشيء الواحد مثالاً لأشياءَ من[2] الملكوت. وربما كان للشيء الواحد من الملكوت أمثلةً كثيرةً من عالمِ الشهادة. وإنما تكون مثالاً إذا ماثله نوعاً من المماثلة، وطابقهُ نوعاً من المطابقة.

وإحصاء تلك المماثلة[3] يستدعي استقصاءَ جميع موجوداتِ العالمين بأسرها، ولن تفي به القوة البشرية وما اتسع لفهمه القوة البشرية. فلا تفي بشرحه (/٢٧) الأعمار القصيرة. فغايتي أن أعرّفك منها أنموذجاً لتستدِلَّ

---

(١) حيث تلقى موسى عليه السلام الأمر بخلع نعليه. أنظر القرآن الكريم السورة ٢٠: ١٢، والسورة ٧٩: ٦.

(٢) عالم الشهادة انقلها من ص ٦٧.

(٣) عالم الملكوت انقلها من ص ٦٧.

(1) في المخطوطة: فجعلت.

(2) في المخطوطة ساقطة.

(3) في المخطوطة: المماثلة.

باليسير منها على الكثير، وينفتح لك باب الإستبصار[1] بهذا النمط من الأسرار فأقول:

إن كان في عالم الملكوت جواهر نورانية شريفةً عاليةً يُعبَّرُ عنها بالملائكة، منها تفيض الأنوار على الأرواح البشرية، ولأجلها قد تُسمى أرباباً، ويكون الله تعالى رب الأرباب[1] لذلك، ويكون لها مراتب في نورانيتها متفاوتة، فبالحريِّ أن يكون مثالها من عالم الشهادة: الشمس القمر والكواكب. والسالك للطريق أولاً ينتهي إلى ما درجته درجة الكواكب فيتضح له إشراق نوره وينكشف له أن العالم الأسفل بأسره تحت سلطانه وتحت إشراق نوره؛ ويتضح له من جماله وعلو درجته ما يبادر فيقول: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾[٢] ثم إذا اتضح له ما فوقه مما رتبته رتبة القمر، رأى دخول الأول في مغرب الهُوِي[٣] بالإضافة إلى ما فوقه فقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾[٤] وكذلك يترقي حتى ينتهي إلى ما مثاله الشمس فيراه أكبر وأعلى، فيراه قابلاً للمثال بنوع مناسبة له معه[٥]. والمناسبة مع ذي النقص نقص وأُفول أيضاً. فمنه يقول: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَاتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفاً﴾[٦]. ومعنى «الذي» إشارة مبهمة لا مناسبة لها: إذ لو قال قائل ما مثال مفهوم «الذي» لم يتصور أن يجاب عنه. فالمنزه[2] عن كل مناسبة هو الأول الحق. ولذلك لما قال بعض الأعراب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما نسب الإلّه؟»[٧]

---

(١)
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٧٦.
(٣) من فعل: هوى يهوي هُوِيّ.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٧٦ أيضاً.
(٥) ليته أتى بالآية الكريمة: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تتويجاً لكلامه.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ٧٦. انظر الآيات التي تليها إلى الآية ٧٩.
(٧) رواه الترمذي عن أبي كعب، وعن أبي العالية وهو أصح.

(1) في المطبوعة: الاستعبار. (2) في المطبوعة: فالمتنزه.

نزل في جوابه: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾(١)،[1] معناه أن التقديس[2]والتنزه عن النسبة نسبته.(٢). ولذلك لما قال فرعون لموسى: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ كالطالب لماهيته، لم يجب إلا بتعريفه بأفعاله، إذ كانت الأفعال أظهر عند السائل، فقال: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(٣)، فقال فرعون لمن حوله ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾(٤) كالمنكر عليه في عدوله في جوابه عن (/٢٨) طلب الماهية، فقال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾(٥)، فنسبه فرعون إلى الجنون إذ كان مطلبه المثال والماهية؛ وهو يجيب عن الأفعال، فقال ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾(٦).

ولنرجع إلى الأنموذج فأقول[3]: علم «التعبير» يعرّفك منهاج ضرب المثال؛ لأن الرؤيا جزء من النبوة(٧). أما ترى أن الشمس في الرؤيا تعبيرها السلطان، وذلك[4] لما بينهما من المشاركة والمماثلة في معنى روحاني ـ وهو الإستعلاء على الكافة مع فيضان الآثار على الجميع، والقمر تعبيره الوزير لإفاضة الشمس نورها بواسطة القمر على العالم عند غيبتها كما يفيض السلطان آثاره[5] بواسطة الوزير على من يغيب عن حضرة السلطان. وأن من يرى أنه في يده خاتم يختم به أفواه الرجال وفروج النساء فتعبيره أنه مؤذن يؤذن قبل الصبح في رمضان. وأن من رأى[6] أنه يصب الزيت في

(١) سورة الأخلاص.
(٢) ومثلها قوله أي الغزالي: الله أكبر أي أكبر من أن يُنسب انظر ص ( ).
(٣) سورة الشعراء، الآية: ٢٤.
(٤) (٥) (٦) سورة الشعراء، الآيات (٢٥ ـ ٢٧).
(٧) لحديث الرسول صلى الله عليه وسلم.. «الرؤيا الصادقة جزء من ستّ وأربعين جزءاً من النبوة» (البخاري ٣٧/٩).

(1) الآية الثالثة: زيادة بالمخطوطة.
(2) في المطبوعة: التقدس.
(3) في المطبوعة: فنقول.
(4) في المطبوعة ساقطة..
(5) في المطبوعة: أنواره.
(6) في المطبوعة: يرى.

الزيتون فتعبيره أن تحته جارية هي أمه وهو لا يعرف[١]. واستقصاءُ أبواب التعبير يزيدك أنساً بهذا الجنس، فلا يمكنني الاشتغال بعدِّها: بل أقول:

كما أن في الموجودات العالية الروحانية ما مثاله الشمس والقمر والكواكب، فكذلك فيها ما له أمثلةٌ أخرى إذا اعتُبِرتْ منه أوصاف أخرى سوى النورانية. فإن كان في تلك الموجودات ما هو ثابت لا يتغير وعظيم لا يُستصغر، ومنه تنفجر[1] إلى أودية القلوب البشرية مياه المعارف، ونفائس المكاشفات، فمثاله «الطّور»[٢]؛ وإن كان ثَمّ موجودات تتلقى تلك النفائس أولاً بعضهم بعد البعض[2] بعضهم أولى من بعض فمثالها الوادي[٣]. وإن كانت النفائس بعد (٢٩/) اتصالها بالقلوب البشرية تجري من قلب إلى قلب، فهذه القلوب أيضاً أودية. ومفتتح الوادي قلوب الأنبياء ثم العلماء ثم مَنْ بعدهم. فإن كانت هذه الأودية دون الأول وعنها تغترفُ، فبالحرِيّ أن يكون الأول هو الوادي الأيمن لكثرة يُمْنه[٤] وعلو درجته. وإن كان الوادي الأدون[٥] يتلقى من آخر درجات الوادي الأيمن فمغرفته

---

(١) انظر (تعطير الأنام في تعبير المنام) تجد هذه التفاسير في الهامش عن ابن سيرين. وفي هذا دليل أن تفسير الأحلام لابن سيرين يعود إلى ما قبل الغزالي من الناحية التوثيقية حتى الآن.

(٢) ورد اسم الطور في القرآن الكريم عشر مرات في ثماني سور تناول الإمام الغزالي منها قول الله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾ [مريم: ٥٢] وانتزع مصطلحه «الطور» منها ليُغني فكرته بمثال واقعي.

(٣) الوادي المقصود هنا وادي «طوى» من قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٦].

(٤) اليمين يعني: القوة.

(٥) الأدْوَن يعني: الأقل.

(1) في المطبوعة: يتفجر.

(2) أوّلاً بعضهم بعد البعض: زيادة من المخطوطة.

شاطىء[١] الوادي الأيمن[٢] دون لجّته ومبدئه[٣]. وإن كان روح النبي سراجاً منيراً، وكان ذلك الروح مقتبساً بواسطة وحي كما قال: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا﴾[٤] فما منه الاقتباس مثاله النار، وإن كان المتلقفون[1] من الأنبياء:

بعضهم على محض التقليد لما يسمعه.

وبعضهم على حظ من البصيرة، فمثال حظ المقلد الخبر[٥]، ومثال حظ المستبصر الجذوة والقبس والشهاب.

فإن صاحب الذوق مشارك للنبي في بعض الأحوال.

ومثال تلك المشاركة الاصطلاء. وإنما يصطلي بالنار من معه النار، لا من يسمع خبرها. وإن كان أول منزلة[3] الأنبياء الترقي إلى العالم المقدس عن كدورة الحس والخيال، فمثال ذلك المنزل الوادي المقدس. وإن كان لا يمكن وطء ذلك الوادي المقدس إلا باطّراح الكونين - أعني الدنيا والآخرة - والتوجه إلى الواحد الحق، وكأن[4] الدنيا والآخرة متقابلتان متجاذبتان [5] وهما عارضان للجوهر النوراني البشري يمكن

---

(١) شاطىء الوادي: جانِبُهُ. انظر (مرعشلي: العمدة في غريب القرآن ٢٣٤) (الصحاح ٥٥١).

(٢) انظر قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِىءِ الْوَادِ الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠].

(٣) مبدؤ الوادي: وسطه من ناحية العمق.

(٤) سورة الشورى، الآية: ٥٢.

(٥) انظر قول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧] وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ * فَلَمَّا أَتَاهَا...﴾ [القصص: ٢٩] وإن هاتين الآيتين محور أمثله الإمام الغزالي في هذا النص.

(1) في المطبوعة: المتلقنون.

(2) في المطبوعة: سمعه.

(3) في المطبوعة: منزل.

(4) في المطبوعة: لأن.

(5) في المطبوعة: متحاذيتان.

اطراحهما مرة والتلبيس[1] بهما أخرى، فمثال اطّراحهما عند الإحرام للتوجه إلى كعبة القدس خلع النعلين. بل نترقى إلى الحضرة الربوبية مرة أخرى ويقول:

إن كان في تلك الحضرة شيء(/٣٠)بواسطته تنتقش العلوم المفصّلة في الجواهر القابلة لها فمثاله: «القلم»[(١)]. وإن كان في تلك الجواهر القابلة ما بعضها سابق إلى التلقي، ومنها ينتقل إلى غيرها، فمثالها «اللوح[(٢)] والكتاب[2]» و«الرق المنشور»[(٣)]. وإن كان فوق الناقش للعلوم شيء هو مسخرٌ له[3] فمثاله «اليد»[(٤)]. وإن كان لهذه الحضرة المشتملة على اليد واللوح والقلم والكتاب ترتيب منظوم فمثاله «الصورة»[(٥)]. وإن كان يوجد للصورة الإنسية نوع ترتيبٍ على هذه المشاكلة[4]، فهي على صورة الرحمن. وفرق بين أن يقال «على صورة الرحمن» وبين أن يقال «على صورة الله» لأن الرحمة الإلٓهية هي التي صورت الحضرة الإلهية بهذه الصورة.

ثم أنعم على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما في العالم حتى كأنه كل ما في العالم أو هو نسخة من العالم مختصرة. وصورة

---

(١) القلم: علم التفصيل (تعريفات ١٨٧) وجاء ذكره في القرآن الكريم في موضعين. محل الشاهد فيهما قوله تعالى: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ٣].

(٢) اللوح: هو الكتاب المبين والنفس الكلية (اصطلاحات ٧٣) لم يأتِ اسم اللوح في القرآن الكريم سوى مرة واحدة بقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢].

(٣) الرقُّ المنشور: ورد ذكره مرة واحدة في القرآن الكريم، بقوله تعالى: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ * فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ [الطور: ٣].

(٤) انظر قوله تعالى في ٢٣: ٨٨ و٣٦: ٨٣ و٦٧: ١ و٣: ٧٣ و٥٧: ٢٩ و٣٨: ٧٥

(٥) المقصود: الصورة الإنسانية (الإنسية).

(1) في المطبوعة: التلبس.

(2) في المخطوطة: والكتاب.

(3) ساقطة من المطبوعة.

(4) في المخطوطة: المشاكلة.

آدم ـ أعني هذه الصورة ـ مكتوبة بخط الله تعالى[1]. فهو الخط الإلّهي الذي ليس برقم حروف، إذ تنزه خطه عن أن يكون رقماً وحروفاً كما ينزه[2] كلامه (عن)أن يكون صوتاً وحروفاً[3]، وقلمه عن أن يكون خشبياً وقصباً، ويده عن أن تكون لحماً وعظماً. ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمي عن معرفة ربه: إذ لا يعرفُ ربَّهُ إلا من عرف نفسه. فلما كان هذا من آثار الرحمة صار على صورة الرحمن لا على صورة الله: فإن حضرة الإلّهية غير حضرة الرحمة وغير حضرة الملك وغير حضرة الربوبية. ولذلك أمر باللّياذ[4]. بجميع هذه الحضرات فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۞ مَلِكِ النَّاسِ ۞ إِلَٰهِ النَّاسِ﴾[١]. ولولا هذا المعنى لكان قوله: إن الله خلق آدم غير منظوم لفظاً بل كان ينبغي أن يقول على صورته (٣١/) واللفظ الوارد في الصحيح: الرحمن[٢][5].

ولأن تمييز حضرة المُلك عن الإلّهية والربوبية يستدعي شرحاً طويلاً، فلنتجاوز عنه[6]، ويكفيك من الأنموذج هذا القدر، فإن هذا بحر عظيم[7] لا ساحل له. وإن[8] وجدت في نفسك نفوراً عن هذه الأمثال فآنِسْ قلبك بقوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[٣] الآية؛ وأنه كيف ورد في التفسير أن الماء هو: المعرفة والقرآن، والأودية: القلوب.

---

(١) سورة الناس: الآيات: ١ ـ ٣.

(٢) خاض في غمار هذا البحث بعد ذلك الشيخ أحمد محيي الدين ابن عربي، انظره مفصلاً في كتابه «الفتوحات المكية» ص ٢/ ١٦٠، ١٦١ ط. القاهرة ١٩٧٢.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(1) ساقطة من المطبوعة.

(2) في المطبوعة: تنزه.

(3) في المطبوعة: حرفاً.

(4) في المطبوعة: بالعياذ.

(5) في المطبوعة: ينبغي أن يقول: على صورته واللفظ الوارد في الحديث الصحيح على صورة الرحمن.

(6) في المطبوعة: فلنتجاوزه.

(7) ساقطة من المطبوعة.

(8) في المطبوعة: فإن.

خاتمة واعتذار

لا تظنن من هذا الأنموذج في(1) طريق ضرب الأمثال(2) رخصة منّي في رفع الظواهر(١) واعتقاداً في إبطالها حتى أقول مثلاً لم يكن مع موسى نعلان، ولم يسمع الخطاب بقوله: ﴿ٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾(٢). حاش لله! فإن إبطال الظواهر رأيُ الباطنية(٣) الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالَمين، ولم يعرفوا الموازنة بين العالَمين، ولم يفهموا وجهه. كما أن إبطال الأسرار مذهب الحشوية(٤). فالذي يجرد الظاهرَ حشويٌّ، والذي يجرد الباطن باطني. والذي يجمع بينهما كامل. ولذلك قال عليه السلام: «للقرآن ظاهر

---

(١) الظواهر: جمع ظاهر، وهو اسم لكلام ظهر المراد منه للسامع بنفس الصيغة، ويكون محتملاً للتأويل والتخصيص انظر (تعريفات ١٤٧) وهو ما تعرفه العرب من كلامها، وما لا يُعذر أحد بجهالته من حلال وحرام. أما (الباطن) في لغة الشرع: فهو التفسير الذي يعلمه العلماء بالإستنباط والفقه.

(٢) من قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه: ١٢].

(٣) الباطنية: من الباطن. ظهروا منذ بداية الفتوحات الإسلامية بتوجيه من عبد الله بن سبأ، واستفحل أمرهم في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، متخذين أسماء وعناوين مختلفة.

(٤) الحشوية: من الحشو. وهم المرتبطون بالظاهر دون إعمال للعقل والتفكير، أي بالتمسك بظاهر النصوص تماماً.

(1) في المطبوعة: وطريق.

(2) في المطبوعة: [illegible].

وباطن وحَدٌّ ومطَّلَع»[١] وربما نُقل هذا عن عليٍّ موقوفاً عليه[٢].

بل أقول فهم موسى من الأمر بخلع النعلين اطِّراح الكونين فامتثل الأمر ظاهراً بخلع نعليه، وباطناً بطرح[٣] العالمين. وهذا هو «الاعتبار» أي العبور من الشيء إلى غيره، ومن الظاهر إلى السر. وفرق بين من يسمع قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تدخل(2) الملائكة بيتاً فيه كلب»[٣] فيقتني الكلب في البيت ويقول ليس الظاهر مراداً، بل المراد تخلية بيت القلب عن كلب الغضب[٤] لأنه يمنع المعرفة التي هي من أنوار الملائكة:

---

(١) الحديث بتمامه: عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أُنْزِلَ القرآن على سبعة أحرفٍ، لكلِّ حرفٍ منها ظهرٌ وبطنٌ، ولكل حرف حدٌّ، ولكل حدٍّ مطلع» (السيوطي. الجامع الصغير: ٢٧٢/٧) عن الطبراني في معجمه الكبير وحسَّنه. (كما ذكره الهيثمي في زوائد ابن حبان ١٥٢/٧، ١٥٣) وظهره: الظاهر في التلاوة، وبطنه: ما بطن من تأويله. والحدُّ: من حدود الله التي حدَّها من حلال وحرام وشرائع ومقادير الثواب والعقاب. مطَّلع: ما يطلع عليه الإنسان ويلاقيه يوم القيامة وفي «النهاية» عن ابن الأثير: أي لكل حدٌّ مصعد يصعد إليه من معرفة علمه، والمطَّلَع مكان الاطلاع من موضع عالٍ. ا هـ. ومن أقوال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لو أن لي ما في الأرض من صفراء وبيضاء لافتديت به من هول المطَّلَع» أي هول القيامة بعد الموت. أنظر (تفسير الطبري ٢٢، ٢٣، ٧٢).

(٢) ليس كذلك كما بينت. والحديث الموقوف: ما روي عن الصحابي من قول أو فعل متصلاً كان، أو منقطعاً، وقد يُستعمل في غير الصحابي مقيَّداً (قواعد في علوم الحديث ـ التهانوي ٤١).

(٣) (البخاري: كتاب بدء الخلق. باب ٧، ١٧ وفي المغازي ١٢، لباس ٨٨، ٩٤) (مسلم: كتاب اللباس، الحديث ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤) كما رواه أبو داود والترمذي، والنسائي وابن ماجه، والدارمي، والإمام أحمد في مسنده.

(٤) يعتبر الإمام الغزالي كغيره من المتصوفة المتأثرين بالفكر الفلسفي وبأفكار فلاسفة اليونان وعلى رأسهم أرسطو طاليس؛ يعتبر أن النفس الإنسانية تحوي عدة نفوس: منها الغضبية والشهوانية، والحيوانية الكلبية والسبعية، وغير ذلك مما نجده مثلاً لا حصراً في كتاب «الأخلاق» لأرسطو وكتاب «تهذيب الأخلاق» ليحيى بن عدي اليعقوبي و«الأخلاق» للراغب الأصفهاني. و«ميزان العمل» و«إحياء علوم الدين» للمؤلف نفسه. وأرى أنها أفكار لا غبار عليها لوجودها الواقعي في نفوسنا.

(1) في المخطوطة: بطرح. (2) في المطبوعة: لا يدخل.

إذ الغضب غول العقل، وبين من يمتثل الأمر في الظاهر ويُنزل القلبَ مشحوناً بالأخلاق الخبيثة وبين من[1]يقول: الكلب ليس كلباً لصورته(٣٢/) بل لمعناه ـ وهو السَبُعية والضراوة ـ وإذا كان حفظ البيت الذي هو مقر الشخص والبدن واجباً عن صورة الكلب، فبأن يجب حفظ بيت القلب ـ وهو مقر الجوهر الحقيقي الخاص ـ عن شر الكلبية أَوْلى. فأنا أجمع بين الظاهر والسر جميعاً، فهذا هو الكامل: وهو المعنيّ بقولهم(١): «الكامل من لا يطفىء نورُ معرفته نورَ ورعه». ولذلك ترى الكامل لا تسمح نفسه بترك حد من حدود الشرع مع كمال البصيرة. وهذه مَغْلطة منها وقع بعض السالكين(٢) إلى الإباحة وطي بساط الأحكام ظاهراً، حتى أنه ربما ترك أحدهم الصلاة وزعم أنه دائماً في الصلاة بسره. وهذا سوى مغلطة الحمقى من الإباحية الذين تأخذهم تُرهات كقول بعضهم «إن الله غني عن عملنا»، وقول بعضهم: إن الباطن مشحون بالخبائث ليس يمكن تزكيته، ولا يطمع في استئصال الغضب والشهوة لظنه أنه مأمور باستئصالهما: وهذه حماقات.

وأما[2] ما ذكرناه فهو كبوة جواد وهفوة سالك حسده الشيطان فدلّاه بحبْل الغرور.

وأرجع إلى حديث النعلين فأقول: ظاهر خلع النعلين منبه على ترك الكونين. فالمثال في الظاهر حق وأداؤه إلى السر الباطن حقيقة ولكلِّ حقٍّ حقيقة[3]، وأهل هذا التنبيه هم الذين بلغوا درجة الزجاجة كما سيأتي معنى الزجاجة؛ لأن الخيال الذي من طينته يتخذ المثال صلب كثيف يحجب الأسرار ويحول بينك وبين الأنوار؛ ولكن إذا صفا حتى صار كالزجاج

---

(١) المقصود بـ هم: أهل الحقيقة: أي المتصوفة.
(٢) السالكون: جمع سالك. وهو الذي مشى على المقامات بحاله لا بعلمه وتصوّره (تعريفات ١٢١).

(1) العبارة: وينزل القلب إلى: من ساقطة من المطبوعة.
(2) في المطبوعة: فأما.
(3) الجملة ساقطة من المطبوعة.

الصافي صار[1] غير حائل عن الأنوار، بل صار مع ذلك مؤدياً للأنوار، بل صار مع ذلك حافظاً للأنوار عن الانطفاء بعواصف الرياح. وستأتيك قصة الزجاجة إن شاء الله[2].

فاعلم أن العالم الكثيف (/٣٣) الخيالي السفلي صار في حق الأنبياء زجاجة ومشكاة للأنوار ومصفاة للأسرار، ومرقاة إلى العالم الأعلى. وبهذا يعرف أن المثال الظاهر حق ووراءه سر. وقس على هذا «الطّور» و«النار» وغيرهما.

دقيقة

إذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم[3]: «رأيت عبد الرحمن بن عوف[١] يدخل الجنة حَبْواً»[٢] فلا تظنن أنه لم يشاهده بالبصر كذلك، بل رآه في يقظته كما يراه النائم في نومه؛ وإن كان عبد الرحمن مثلاً نائماً في بيته بشخصه، فإن النوم إنما أثر في أمثال هذه المشاهدات لقهره سلطان الحواس عن النور الباطن الإلهي، فإن الحواس شاغلة له وجاذبة إياه إلى عالم الحس، وصارفةً وجْهَه عن عالم الغيب والملكوت. وبعض الأنوار النبوية قد يستعلي ويستولي بحيث لا تستجره الحواس إلى عالمها ولا تشغله، فيشاهد في اليقظة ما يشاهد غيره في المنام. ثم أنه[4] إذا كان في

---

(١) أحد العشرة المبشرين بالجنة من الصحابة الكرام، شهد المشاهد كلها، اجتمع له مال كثير وتجارة واسعة. أعتق في يوم واحد واحداً وثلاثين عبداً، وتصدَّق يوماً بقافلة فيها سبع مائة راحلة تحمل الحنطة والدقيق والطعام وحين حضرته الوفاة أوصى بألف فرس وبخمسين ألف دينار في سبيل الله. توفي في المدينة المنورة سنة ٣٢ هـ (حلية الأولياء ٩٨/١) (الأعلام ٣٢١/٣).

(٢)

(1) ساقطة من المطبوعة.

(2) الجملة ساقطة من المطبوعة.

(3) بدلاً منها في المطبوعة: عليه السلام.

(4) في المخطوطة: ثم أنه.

غاية الكمال لم يقتصر إدراكه على محض الصورة المبصرة، بل عَبر منها إلى السر فانكشف له أن الإيمان جاذب إلى العالم الذي يُعبَّر عنه بالجنة؛ والغنى والثروة والمال[1] جاذب إلى الحياة الحاضرة وهي العالم الأسفل. فإن كان الجاذب إلى أشغال الدنيا أقوى، أو مقاوماً للجاذب الآخر صُدَّ عن السير[2] إلى الجنة. وإن كان جاذب الإيمان أقوى أورث عسراً وبطئاً في سيره؛ فيكون مثاله من عالم الشهادة «الحبْو». فكذلك تتجلى له أنوار الأسرار من وراء زجاجات الخيال. وكذلك[3] لا يقتصر في حكمه على عبد الرحمن، وإن كان إبصاره مقصوراً عليه، بل يحكم به على كل من قويت بصيرته واستحكم إيمانه، وكثرت ثروته كثرة تزاحم الإيمان لكن لا تقاومه لرجحان قوة الإيمان.

فهذا يعرِّفك كيفية إبصار الأنبياء الصور وكيفية مشاهدتهم المعاني من وراء الصور. والأغلب أن يكون المعنى سابقاً إلى المشاهدة (٣٤/) الباطنة ثم يشرق منها على الروح الخيالي فينطبع الخيال بصورة موازنة للمعنى محاكية له. وهذا النمط من الوحي في اليقظة يفتقر إلى التأويل[١]، كما أنه في النوم يفتقر إلى التعبير[٢]. والواقع منه في النوم نسبته إلى الخواص النبوية نسبة الواحد إلى ستة وأربعين[٣]. والواقع في اليقظة نسبته أعظم من ذلك. وأظن أن نسبته إليه نسبة الواحد إلى الثلاثة. فإن [الذي] انكشف لنا من الخواص النبوية ينحصر شعبها في ثلاثة أجناس، وهذا واحد من تلك الأجناس الثلاثة.

---

(١) التأويل: تفسير ما يؤول إليه الشيء، وقد أوَّلته وتأوَّلته، تأوُّلاً بمعنىً (الصحاح ٤٥).
(٢) التعبير: يُقال عَبَرتُ الرُّؤْيا أعبُرُها عبارةً: فسَّرتها. قال الله تعالى: ﴿إن كُنتُم لِلرُّؤيَا تَعْبُرُونَ﴾. انظر (الصحاح ٧٠١).
(٣) لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، السابق ذكره ص(١١٦).

(1) في المطبوعة ساقطة.
(2) في المطبوعة: المسير.
(3) في المطبوعة: لذلك.

القطب الثاني: في بيان مراتب الأرواح البشرية النورانية.

إذ بمعرفتها تعرف أمثلة القرآن.

فالأول منها: الروح الحساس:

وهو الذي يتلقى ما تورده الحواس الخمس، وكأنه أصل الروح الحيواني وأوله، إذ به يصير الحيوان حيواناً. وهو موجود للصبي الرضيع.

الثاني: الروح الخيالي:

وهو الذي يُستثبت ما أوردته[1] الحواس ويحفظه مخزوناً عنده ليعرضه على الروح العقلي الذي فوقه عند الحاجة إليه. وهذا لا يوجد للصبي الرضيع في بداية نشوئه: ولذلك يولع بالشيء ليأخذه، فإذا غُيِّبَ عنه نسيَهُ[2] ولا تنازعه نفسه إليه إلى أن يكبر قليلاً فيصير بحيث إذا غُيِّب عنه بكى وطلبه[3] لبقاء صورته محفوظة في خياله. وهذا قد يوجد لبعض الحيوانات دون بعض، ولا يوجد للفَرَاش المتهافت على النار لأنه يقصد النار لشغفه بضياء النهار: فيظن أن السراج كوَّةٌ مفتوحةٌ إلى موضع الضياء فيلقى نفسه عليه فيتأذى به. لكنه إذا جاوزه وحصل في موضع[4] الظلمة عاوده مرة بعد مرة. ولو كان له الروح الحافظ[(١)] (/ ٣٥) المستثبت لما أداه الحس إليه من الألم لما عاوده بعد أن تضرر مرة به. فالكلب إذا ضرب مرة بخشبة، فإذا رأى الخشبة بعد ذلك من بعد هرب.

---

(١) الروح الحافظ: هو اللطيفة العالمة المدركة من الإنسان، يعجز العقل عن إدراك كنهها (تعريفات ١١٧).

(1) في المطبوعة: أورده.

(2) في المطبوعة: غاب عنه ينساه.

(3) في المطبوعة: طلب ذلك.

(4) ساقطة من المطبوعة.

الثالث: الروح العقلي:

الذي به تدرك المعاني الخارجة عن الحس والخيال، وهو الجوهر الإنسي الخاص، ولا يوجد للبهائم[1] ولا للصبيان. ومدركاته المعارف الضرورية الكلية كما ذكرنا عند ترجيح نور العقل على نور العين.

الرابع: الروح الفكري:

وهو الذي يأخذ العلوم العقلية المحضة فيوقع بينها تأليفات وازدواجات ويستنتج منها معارف شريفة. ثم إذا استفاد نتيجتين مثلاً، ألَّف بينهما مرة أخرى واستفاد نتيجة أخرى. ولا يزال يتزايد كذلك إلى غير نهاية.

الخامس: الروح القدسي النبوي:

الذي يختص به الأنبياء وبعض الأولياء. وفيه تتجلى لوائح الغيب[١]، وأحكام الآخرة، وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض، بل من المعارف الربانية التي يقصر دونها الروح العقلي والفكري. وإليه الإشارة بقول عز وجل[2]: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ، وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**[3]﴾[٢] الآية. ولا[4] يبعد أيها المعتكف في عالم العقل[٣] أن يكون وراء العقل طوراً آخر يظهر فيه ما لا يظهر في العقل، كما

(١) لوائح الغيب: ما يلوح من الغيب. كالرؤيا الصادقة مثلاً. أنظر (التعريفات ٢٩١).
(٢) سورة الشورى، الآية: ٥٢.
(٣) عالم العقل: كل ما يدركه العقل.

(1) في المطبوعة: لا للبهائم.
(2) في المطبوعة: تعالى.
(3) من نشاء من عبادنا إنك لتهدي إلى صراط مستقيم: زيادة من المخطوطة.
(4) في المطبوعة: فلا.
(5) في المطبوعة: العاكف.

لا يبعد كون العقل طوراً وراء التمييز والإحساس تنكشف فيه غرائب وعجائب يقصر عنها الإحساس والتمييز. ولا تجعل أقصى الكمال وقفاً على نفسك. وإن أردت مثالاً مما نشاهده من جملة خواص بعض البشر فانظر إلى ذوق(١) الشِّعر كيف يختص به قوم من الناس وهو نوع إحساس (/٣٦) وإدراك، ويحرم عنه بعضهم حتى لا تتميز عندهم الألحان الموزونة من المنزحفة.

وانظر كيف عظمت قوَّة الذَّوق في طائفة حتى استخرجوا بها الموسيقى، والأغاني والأوتار وصنوف الدستانات التي منها المُحزِن، ومنها المطرب، ومنها المنوِّم، ومنها المضحك، ومنها المجنن، ومنها القاتل، ومنها الموجب للغشي.

وإنما تقوى هذه الآثار فيمن له أصل الذوق. وأما العاطل عن خاصية الذوق فيشارك في سماع الصوت وتضعف فيه هذه الآثار، وهو يتعجب من صاحب الوجد والغشيّ[1]. ولو اجتمع العقلاء كلهم من أرباب الذوق على تفهيمه معنى الذوق لم يقدروا عليه. فهذا مثال في أمر حسّي[2] لكنه قريب إلى فهمك. فقسْ به الذوق الخاص النبوي واجتهد أن تصير من أهل الذوق بشيء من ذلك الروح: فإن للأولياء منه حظاً وافراً. فإن لم تقدر فاجتهد أن تصير بالأقيسة التي ذكرناها والتنبيهات التي رمزنا إليها من أهل العلم بها. فإن لَمْ تَقْدِر فلا أقلَّ مِنْ أنْ تكونَ من أهل الإيمان بها: و ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾(٢). والعلم فوق الإيمان، والذوق فوق العلم(٣). فالذوق وجدان(٤) والعلم قياس. والإيمان قبول مجرد بالتقليد. وحسّن الظن بأهل الوجدان أو بأهل العرفان.

---

(١) ذوق: يعني بها: الموهبة في المشاركة الروحية والنفسية.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١١.

(٣) أي أن الموهبة أفضل وأعلى منزلة من العلم، وهذا لا شك فيه فأغلب العلوم يبرز فيها أصحاب المواهب فإذا أضيف العلم إلى الموهبة فهو نور على نور.

(٤) وجدان: أي وجود الشيء.

(1) في المطبوعة: والشغي.   (2) في المطبوعة: خسيس.

فإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فاعلم أنها بجملتها أنوار إذ بها[1] تظهر أصناف الموجودات، والحسي والخيالي منها، وإن كانت تشارك البهائم في جنسها، لكن الذي للإنسان منها[2] نمط آخر أشرف وأعلى؛ وخلقت للإنسان[3] لأجل غرض أجلّ وأسمى. أما الحيوانات فلم يخلق ذلك لها إلا لتكون[4] آلتها في طلب(٣٧/) غذائها و[5]في تسخيرها للآدمي. وإنما خلق للآدمي لتكون له[6] شبكة يقتنص بها من العالم الأسفل مبادىء المعارف الدينية الشريفة. إذ للإنسان إذا أدرك بالحس شخصاً معيناً اقتبس عقله منه معنىً عاماً مطلقاً كما ذكرناه[7] في مثال حبْو عبد الرحمن بن عوف. وإذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فلنرجع إلى عرض الأمثلة.

بيان أمثلة هذه الآية

اعلم أن القول في موازنة هذه الأرواح الخمسة للمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت يمكن تطويله، لكني أوجزه وأقتصر على التنبيه على طريقه فأقول:

أما **الروح الحساس** فإذا نظرت إلى خاصيته وجدت أنواره خارجة من ثُقُب عدة كالعينين والأذنين والمنخرين وغيرها. وأوفق مثال له من عالم الشهادة المشكاة.

وأما **الروح الخيالي** فنجد له خواص ثلاثاً:

إحداها: أنه من طينة العالم السفلي الكثيف: لأن الشيء المتخيَّل ذو مقدار وشكل وجهات محصورة مخصوصة. فهو على نسبة من المتخيل من

---

(1) في المطبوعة: لأنها.
(2) في المطبوعة: منه.
(3) في المطبوعة: خلق الإنسان.
(4) في المطبوعة: ليكون.
(5) الواو ساقطة من المطبوعة.
(6) في المطبوعة: ليكون.
(7) في المطبوعة: ذكرنا في.

قرب أو من[1] بعد. ومن شأن الكثيف الموصوف بأوصاف الأجسام أن يحجب عن الأنوار العقلية المحضة التي تتنزه عن الوصف بالجهات والمقادير والقرب والبعد.

الثانية: أن هذا الخيال الكثيف إذا صفّي ورقق[2] وهذّب وضبط صار موازياً للمعاني العقلية ومؤدياً لأنوارها، غير حائل لإشراق نورٍ منها[3].

الثالثة: أن الخيال في بداية الأمر محتاج إليه جداً ليضبط به المعارف العقلية فلا تضطرب ولا تتزلزل ولا تنتشر انتشار الخروج [4] عن الضبط. فنعم المعين المثالات الخيالية للمعارف العقلية (/٣٨) وهذه الخواص الثلاث لا نجدها في عالم الشهادة بالإضافة إلى الأنوار المبصرة إلا للزجاجة: فإنها في الأصل من جوهر كثيف لكن صُفّي ورقّق حتى صار[5] لا يحجب نور المصباح بل يؤدّيه على وجهه، ثم يحفظه عن الإنطفاء بالرياح العاصفة والحركات العنيفة. فهو[6] أول مثال له.

وأما الثالث: وهو الروح العقلي: الذي به إدراك المعارف الشريفة الإلهية [١] فلا يخفى عليك وجه تمثيله بالمصباح. وقد عرفت هذا فيما سبق من بيان معنى[7] كون الأنبياء سُرُجاً منيرة.

وأما الرابع: وهو الروح الفكري: فمن خاصيته أنه يبتدىء من أصل واحد ثم تتشعب منه شعبتان، ثم من كل شعبة شعبتان، وهكذا إلى أن تكثر الشعب بالتقسيمات العقلية[٢]، ثم يُفضي بالآخرة إلى نتائج هي ثمراتها. ثم تلك الثمرات تعوذ فتصير بذوراً لأمثالها: إذ يمكن أيضاً تلقيح بعضها

---

(١) المعارف الشريفة الإلهية.

(٢) لأن الفكر حين عمله يُبدع ويخترع ويكتشف ويفيد.

(1) ساقطة من المطبوعة.

(2) في المطبوعة: دقق.

(3) في المطبوعة: عن إشراق نورٍ منها.

(4) في المطبوعة: يخرج.

(5) ساقطة من المطبوعة.

(6) في المطبوعة: فهو.

(7) ساقطة من المطبوعة.

بالبعض حتى يتمادى إلى ثمرات وراءها كما ذكرناه في كتاب «القسطاس المستقيم»(١) فبالحريِّ أن يكون مثاله من هذا العالم الشجرة. وإذا[1] كانت ثمراته مادة لتضاعف أنوار المعارف وثباتها وبقائها فبالحريّ ألا تمثل بشجرة السفرجل والتفاح والرمان وغيرها، بل من جملة سائر الأشجار بالزيتونة خاصة: لأن لب ثمرتها[2] هو الزيت الذي هو مادة المصابيح، ويختص من بين[3] سائر الأدهان بخاصية زيادة الإشراق مع قلة الدخان. وإذا كانت الماشية التي يكثر نسلها، والشجرة التي تكثر ثمرتها تسمى مباركة، فالتي لا تتناهى[4] ثمرتها إلى حد محدود أوْلى أن تسمى شجرة مباركة. وإذا كانت شعب الأفكار العقلية المحضة، خارجةً عن قبول الإضافة إلى الجهات والقرب والبعد، فبالحريّ أن تكون: لا شرقية ولا غربية.

وأما الخامس: **وهو الروح القدسي النبوي**: المنسوب إلى الأولياء إذا كان في غاية الشروق والصفاء[5] وكانت الروح المفكرة منقسمة إلى ما يحتاج إلى تعليم وتنبيه ومدَدٍ من خارج حتى يستمر في أنواع المعارف، وبعضها يكون في شدة الصفاء كأنه يتنبه بنفسه من غير مدَدٍ من خارج[6]، فبالحريّ أن يعبّر عن الصافي البالغ الاستعداد بأنه: يكاد زيتُه يُضيءُ، ولو لم تمسسه نارٌ: إذ في[7] الأولياء من يكاد يُشرق نورُه حتى يكاد يستغني عن مدد

---

(١) «القسطاس المستقيم» أحد كتب الإمام الغزالي.

(1) في المطبوعة: وإذ.
(2) في المطبوعة: ثمرها.
(3) ساقطة من المطبوعة.
(4) في المطبوعة: يتناهي.
(5) في المطبوعة: الصفاء والشرف.
(6) ساقط من المخطوطة من كلمة: (حتى يستمر)، إلى (مدد من خارج).
(7) في المطبوعة: من.

الأنبياء؛ وفي الأنبياء من يكاد ضوؤه[1] يستغني عن مدد الملائكة. فهذا المثال موافق لهذا القسم.

وإذا كانت هذه الأنوار مترتبة بعضها على بعضٍ: فالحسِّي هو الأول، وهو كالتوطئة والتمهيد للروح الخيالي[2]، إذ لا يُتصور الخيالي إلا موضوعاً بعده؛ والفكري والعقلي يكونان بعدهما.

فبالحريِّ أن تكون الزجاجة كالمحلِّ للمصباح، والمشكاة كالمحلِّ للزجاجة: فيكون المصباح في زجاجة، والزجاجة في مشكاة.

وإذ كانت هذه كلها أنواراً بعضها فوق بعض فبالحرِيّ أن تكون: نوراً على نور.

---

(1) ساقطة من المطبوعة.

(2) في المطبوعة: للخيالي.

خاتمة

هذا المثال إنما يصحُّ[1] لقلوب المؤمنين أو لقلوب الأنبياء والأولياء لا لقلوب الكفار: فإن النور يراد للهداية[1]. والمصروف[2] عن طريق الهدى باطل وظلمة، بل أشد من الظلمة: لأن الظلمة لا تهدي إلى الباطل كما لا تهدي إلى الحق. وعقول الكفار انتكست، وكذلك سائر إدراكاتهم، وتعاونت على الإضلال في حقوقهم[3]. فمثالهم كرجل في ﴿بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ والبحر اللّجّي: هو الدنيا بما فيها من الأخطار المهلكة والأشغال المردية والكدورات المُعَمِّيَة.

والموج الأول: موج الشهوات الداعية إلى الصفات البهيمية، والاشتغال باللذات الحسية (/ ٤٠) وقضاء الأوطار الدنيوية، حتى يأكلوا ويتمتعوا[4] كما تأكل الأنعام[٣]، وبالحريّ أن يكون هذا الموج مظلماً لأن حُبَّ الشيء يُعمي ويُصم.

والموج الثاني: موج الصفات السَّبُعية الباعثة على الغضب والعداوة والبغضاء والحقد والحسد والمباهاة والتفاخر والتكاثر[٤]. وبالحريّ أن يكون

(١) وهو قول ابن عباس وأغلب المفسِّرين.

(٢) سورة النور، الآية: ٤٠ والآية بتمامها: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ، مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ، مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ، ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾.

(٣) انظر قول الله تعالى:

(٤) انظر ربع المهلكات من كتابه «إحياء علوم الدين» حيث يفرد فصلاً لكل من هذه الصفات.

(1) في المطبوعة: يتضح.

(2) في المطبوعة: فالمعروف.

(3) في المطبوعة: حقهم.

(4) في المطبوعة: حتى إنهم يأكلون ويتمتعون.

مظلماً لأن الغضب غول العقل، وبالحري أن يكون هو الموج الأعلى: لأن الغضب في الأكثر مستولٍ على الشهوات حتى إذا هاج أذهل عن الشهوات، وأغفل عن اللذات المشتهاة، وأما الشهوة فلا تقاوم الغضب الهائج أصلاً.

وأما السحاب: فهو الإعتقادات الخبيثة، والظنون الكاذبة، والخيالات الفاسدة التي صارت حجاباً [1] بين الكافر[2] وبين الإيمان، ومعرفة الحق والاستبصار[3] بنور شمس القرآن والعقل: فإن خاصية السحاب أن يحجب إشراق نور الشمس.

وإذا كانت هذه كلها مظلمةً فبالحريّ أن تكون ظلمات بعضها فوق بعض.

وإذا كانت هذه الظلمات تحجب عن معرفة الأشياء القريبة فضلاً عن البعيدة، ولذلك حجب الكفار عن معرفة عجائب أحوال النبيّ عليه السلام مع قرب متناوله وظهوره بأدنى تأمل، فبالحري أن يعبِّر عنه بأنه إذا أخرج يده لم يكد يراها.

وإذا كان منبع الأنوار كلها من النور الأول الحق كما سبق[4]، فبالحري أن يعتقد كل موحدٍ أن ﴿مَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾. فيكفيك هذا القدر من أسرار هذه الآية فاقنع به والسلام.[5]

---

(1) في المطبوعة: حجباً.
(2) في المطبوعة: الكافرين.
(3) في المخطوطة: الاستبصار.
(4) في المطبوعة بزيادة: بيانه.
(5) ساقطة من المطبوعة.

الفصل الثالث

في معنى قوله صلى الله عليه وسلم[1]: «إن لله سبعين حجاباً من نور وظلمة،لو كشفها لأحرقت سُبُحَات وجهه ما[2] أدركه بصره»(١).

وفي بعض الروايات سبعمائة، وفي بعضها سبعين فأقول (٤١/):

إن الله تعالى متجلٍ في ذاته لذاته، ويكون الحجاب بالإضافة إلى محجوب لا محالة(٢)؛ وإن المحجوبين من الخلق ثلاثةُ أقسامٍ:

منهم من حُجب بمجرد الظلمة.
ومنهم من حجب بالنور المحض.
ومنهم من حجب بنور مقرون بظلمة.

وأصناف هذه الأقسام كثيرة أتحقق كثرتها، ويمكنني أن أتكلف حصرها[3]، لكن لا أثق بما يلوح لي من تحديد وحصر، إذ لا أدري أنه المراد بالحديث أم لا.

أما الحصر إلى سبعمائة وسبعين ألفاً فذلك لا تستقل[4] به إلا القوة

(١) انظر تخريج الحديث في الصفحة الأولى من النص.
(٢) الحجاب بالنسبة إلى المحجوب.

(1) في المطبوعة: عليه السَّلام.
(2) في المطبوعة: كل من.
(3) في المطبوعة: بزيادة: في سبعين.
(4) في المطبوعة: لا يستقل.

النبوية، مع أن ظاهر ظني أن هذه الأعداد مذكورة للتكثير لا للتحديد؛ وقد تجري العادة بذكر عددٍ ولا يراد به الحصر، بل التكثير، والله أعلم بتحقيق ذلك، وذلك(5) خارجٌ عن الوسْعِ.

وإنما الذي يمكنني الآن أن أعرّفك هذه الأقسام وبعض أصناف كل قسم فأقول:

---

(5) في المطبوعة: فذلك.

القسم الأول

وهم المحجوبون بمحض الظلمة، وهم المُلحدة ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾(١). وهم الذين ﴿إِسْتَحَبُّوا(1) الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ﴾(٢) لأنهم لا يؤمنون بالآخرة أصلاً وهؤلاء صنفان.

صنف تشوَّف إلى طلب سبب لهذا العالم وأحاله(2) إلى الطبع، والطبع: عبارة عن صفةٍ مركوزةٍ في الأجسام حالَّة فيها؛ وهي مظلمة إذ ليس لها معرفةٌ وإدراكٌ ولا خبرَ لها من نفسها ولا مما يصدر منها؛ وليس لها نور يُدْرَك بالبصر الظاهر أيضاً.

والصنف الثاني: هم الذين شُغلوا بأنفسهم ولم يتفرغوا(3) لطلب السبب أيضاً، بل عاشوا عيش البهائم، فكان حجابُهم نفوسُهم الكدرة، وشواتهم المظلمة، ولا ظلمة أشد من الهوى والنفس: ولذلك قال الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾(٣) وقال [رسول الله صلى الله عليه وسلم]: «الهوى أبغضُ إله عُبد في الأرض»(٤).

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٤٥.

(٢) سورة النحل، الآية: ١٠٧.

(٣) سورة الجاثية، الآية: ٢٣.

(٤) لم أجده بما لديَّ من المراجع.

(1) في المطبوعة: بزيادة الحياة وهو تحريف.

(2) في المطبوعة: فأحاله.

(3) في المطبوعة: يفرغوا.

وهؤلاء انقسموا فرقاً:

فرقة: زعمت أن غاية الطلب في الدنيا هي قضاء الأوطار، ونيل الشهوات، وإدراك اللذات البهيمية، من منكح، ومطعم، وملبس. فهؤلاء عبيد اللذة، يعبدونها ويطلبونها ويعتقدون أن نيلها غاية السعادات، رضوا لأنفسهم أن يكونوا بمنزلة البهائم، بل أخس منها. وأي ظلمة أشد من ذلك؟ فقد حُجب هؤلاء بمحض الظلمة.

وفرقة: رأت أن غاية السعادات هي الغلبة والاستيلاء والقتل والفتك[1] والسبْيُ والأسْر، وهذا مذهب الأعراب[١] والأكراد[٢] وكثير من الحمقى، وهم محجوبون بظلمة الصفات السَّبُعية لغلبتها عليهم وكون إدراكها مقصودَها أعظم اللذات. وهؤلاء قنعوا بأن يكونوا بمنزلة السباع بل أخس.

وفرقة ثالثة: رأت أن غاية السعادات في[2] كثرة المال واتساع اليسار، لأن المال هو آلة قضاء الشهوات كلها، وبه يحصلُ للإنسان الاقتدار على قضاء الأوطار. فهؤلاء همتهم جمع المال، واستكثار الضياع، والعقار والخيلِ المسوّمة والأنعام، والحرث، وكنز الدنانير تحت الأرض[٣]. فترى الواحد يجتهد طول عُمره يركب الأخطار في البراري[3] والأسفار والبحار ويجمع الأموال، ويشحُّ بها على نفسه فضلاً عن غيره، وهم المرادون بقوله عليه السلام: «تَعِس عبد الدراهم، تعس عبد الدنانير»[٤]. وأي ظلمة أعظم مما

---

(١) البداة الجفاة.

(٢) من كان على عهده مشهوراً بهذه الصفات. أما الذي لمسناه في هذا العصر، وعايشناه خلال معاشرتنا من الأكراد فهو الدين والسماحة والشهامة والكرم وصدق المعاملة

(٣) انظر سورة آل عمران، الآية: ١٤، قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ﴾.

(٤) البخاري (٤١/٤) (١١٥/٨).

(1) ساقطة من المطبوعة.

(2) في المطبوعة ساقطة.

(3) في المطبوعة: البوادي.

يُلبّس على الإنسان؟. إن الذهب والفضة حجران لا يردان لأعيانهما. وهي إذا لم يقضَ بها الأوطار ولم تنفق فهي والحصباء بمثابة، والحصباء بمثابتها.

وفرقة رابعة: ترقت من[1] جهالة هؤلاء وتعاقلت، وزعمت أن أعظم السعادات في اتساع (٤٣/) الجاه والصيت وانتشار الذِّكْرِ، وكثرة الأتباع ونفوذ الأمر المطاع. فتراها لا همّ لها إلا المراءاة وعمارة مطامح[2] أبصار الناظرين: حتى إن الواحد قد يجوع في بيته ويحتمل الضر ويصرف ماله إلى ثياب يتجمل بها عند خروجه كي لا ينظر إليه بعين الحقارة. وأصناف هؤلاء لا يحصَون، وكلهم محجوبون عن الله تعالى بمحض الظلمة وهي نفوسهم المظلمة.

ولا معنى في[3] ذكر آحاد الفِرَق بعد وقوع التنبيه على الأجناس. ويدخل في جملة هؤلاء جماعةٌ يقولون بلسانهم «لا إلّه إلا الله»، لكن ربما حملهم على ذلك خوف أو استظهار بالمسلمين وتجمل بهم أو استمداد من مالهم؛ أو لأجل التعصب لنصرة مذهب الآباء. فهؤلاء إذا لم تحملهم هذه الكلمة على العمل الصالح فلا تخرجهم الكلمة من الظلمات إلى النور، بل ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ﴾[١]. أما من أثَّرت فيه الكلمة بحيث ساءته سيئته، وسرته حسنته، فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثير المعصية.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.

(1) في المخطوطة: من.

(2) في المطبوعة: مطارح.

(3) في المخطوطة: في.

القسم الثاني

طائفة حُجبوا بنور مقرون بظلمة، وهم ثلاثة أصناف: صنف منشأ ظلمتهم من الحس، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال، وصنف منشأ ظلمتهم من مقايسات عقلية فاسدة.

الصنف الأول: المحجوبون بالظلمة الحسية، وهم طوائف لا يخلو واحد منهم عن مجاوزة الإلتفات إلى نفسه وعن التأله والتشوف إلى معرفة ربه. ثم[1] أول درجاتهم عبدة الأوثان وآخرهم الثنوية، وبينهما درجات.

فالطائفة الأولى: عبدة الأوثان: علموا على الجملة أن لهم رباً يلزمهم إيثاره على نفوسهم المظلمة، واعتقدوا أن ربهم أعز من كل شيء وأنفس من كل نفيس[2] ولكن حجبتهم ظلمة الحس عن أن يجاوزوا العالم المحسوس فاتخذوا من أنفس الجواهر كالذهب والفضة والياقوت أشخاصاً مصورة بأحسن الصور واتخذوها آلهة. فهؤلاء محجوبون بنور العزة والجلال[3]، والعزة والجلال[4] من صفات الله عز وجل[5] وأنواره، ولكنهم ألصقوها بالأجسام المحسوسة وصدهم عن ذلك ظلمة الحس، فإن الحس ظلمة بالإضافة إلى العالم الروحاني العقلي كما سبق.

الطائفة الثانية: جماعةٌ من أقاصي الترك ليس لهم ملة ولا شريعة يعتقدون أن لهم رباً وأنه أجملُ الأشياء، فإذا رأوا إنساناً في غاية الجمال أو شجرةً[6] أو فَرَساً أو غير ذلك سجدوا له وقالوا إنه ربنا. فهؤلاء محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس، وهم أدخل في ملاحظة النور من عبدة

---

(1) في المطبوعة: ساقطة.
(2) في المطبوعة: أنفس من كل نفيس ساقطة.
(3) في المطبوعة: الجمال.
(4) في المطبوعة: لم ترِدْ.
(5) في المطبوعة مكررة، وهو الصحيح بالنسبة لبقية السياق.
(6) في المطبوعة: شجراً.

الأوثان لأنهم يعبدون الجمال المطلق دون الشخص الخاص فلا يخصصونه بشيء؛ ثم يعبدون الجمال المطبوع لا المصنوع من جهتهم وبأيديهم.

وطائفة ثالثة قالت[1]- ينبغي أن يكون ربنا نورانياً في ذاته بهيًّا في صورته، ذا سلطان في نفسه، مهيباً في حضرته، لا يطاق القرب منه، ولكن ينبغي أن يكون محسوساً؛ إذ لا معنى لغير المحسوس عندهم. ثم وجدوا النار بهذه الصفة فعبدوها واتخذوها رباً. فهؤلاء محجوبون بنور السلطنة والبهاء: وكل ذلك من أنوار الله تعالى.

وطائفة رابعة زعموا: أن النار نستولي عليها نحن بالإشعال والإطفاء، فهي تحت تصرفنا فلا تصلح للإلٓهية، بل ما يكون بهذه الصفات ولم يكن تحت تصرفنا، ثم نكون نحن تحت تصرفه ويكون مع ذلك موصوفاً(/٤٤)بالعلو والارتفاع. ثم كان المشهور فيما بينهم علم النجوم وإضافة التأثيرات إليها. فمنهم من عبد الشِّعرى ،ومنهم من عبد المُشْتَري إلى غير ذلك من الكواكب بحسب ما اعتقدوه في النجوم من كثرة التأثيرات. فهؤلاء محجوبون بنور العلو والإشراق والاستيلاء، وهي من أنوار الله عز وجل[2]

وطائفة خامسة: ساعدت هؤلاء في المأخذ ولكن قالت لا ينبغي أن يكون ربنا موسوماً بالصغر والكِبَر بالإضافة إلى الجواهر النورانية، بل ينبغي أن يكون أكبرها، فعبدوا الشمس وقالوا هي أكبر. فهؤلاء محجوبون بنور الكبرياء مع بقية الأنوار مقروناً بظلمة الحس.

وطائفة سادسة: ترقّوا عن هؤلاء[3] فقالوا: النور كله لا تنفرد به الشمس بل لغيرها أنوار، ولا ينبغي للرب شريك في نورانيته فعبدوا النور المطلق الجامع لجميع أنوار العالم وزعموا أنه رب العالم، والخيرات كلها منسوبة

---

(1) في المطبوعة: قالت.

(2) في المطبوعة: تعالى.

(3) ساقطة في المخطوطة.

إليه. ثم رأوا في العالم شروراً فلم يستحسنوا إضافتها إلى ربهم تنزيهاً له عن الشر، فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة، وأحالوا العالم إلى النور والظلمة، وربما سموها[I] «يزدان» و«أهرمن»[١]، وهم الثنوية[٢]. فيكفيك هذا القدر تنبيهاً على هذا الصنف، فهم أكثر من ذلك.

الصنف الثاني: المحجوبون ببعض الأنوار مقروناً بظلمة الخيال، وهم الذين جاوزوا الحس، وأثبتوا وراء المحسوسات أمراً، لكن لم يمكنهم مجاوزة الخيال، فعبدوا موجوداً قاعداً على العرش. وأخسهم رتبة المجسّمة[٣] ثم أصناف الكرّامية[٤] بأجمعهم. ولا يمكنني شرح مقالاتهم ومذاهبهم فلا فائدة في التكثير. لكن أرفعهم درجة مَنْ نَفَى الجسمية وجميع عوارضها إلى الجهة المخصوصة بجهة فوق(٤٦/)لأن ذلك الذي لا ينسب إلى الجهات ولا يوصف بأنه خارج العالم ولا داخله لم يكن عندهم موجوداً إذ لم يكن متخيلاً. ولم يدركوا أن أول درجات المعقولات تجاوزُ النسبة إلى الجهات.

الصنف الثالث: المحجوبون بالأنوار الإلّهية مقرونة بمقايسات عقلية فاسدة مظلمة فعبدوا إلّهاً سميعاً بصيراً متكلماً عالماً قادراً مريداً حياً، منزهاً عن الجهات، لكن فهموا هذه الصفات على حسب مناسبة صفاتهم. وربما صرّح بعضهم فقال: «كلامه صوت وحرف ككلامِنَا»[٥]. وربما ترقّى بعضهم فقال: «لا بل هو كحديث نفسنا ولا هو صوت ولا

---

(١) وهذا من مبادىء الزرداشتية والمزدكية. أنظر (الملل والنحل للشهرستاني).

(٢) الثنوية: وهم القائلون: الجوهر جنسان مختلفان: أحدهما: نور، والآخر: ظلمة، وانهما متضادّان، وأن النور كلّه جنس واحد، والظلام كله جنس واحد(ريتر، مقالات الاسلاميين ٣٠٨).

(٣) المجسمة: وهم الذين جعلوا لله جلّ وعلا حدوداً. أنظر (المصدر السابق ٢٠٧).

(٤) الكرامية: أصحاب «محمد بن كرّام» انظر (المصدر السابق ١٤١).

(٥) انظر اختلاف المصلّين (المجسمة والمشبهة).

(آ) في المخطوطة: سموها.

حرف»[١]. وكذلك إذا طولبوا بحقيقة السمع والبصر والحياة رجعوا إلى التشبيه من حيث المعنى، وإن أنكروها من حيث اللفظ[1] إذ لم يدركوا أصلاً معاني هذه الإطلاقات في حق الله عز وجل[2]. ولذلك قالوا في إرادته إنها حادثة مثل إرادتنا. وإنها طلب وقصد مثل قصدنا. وهذه مذاهب مشهورة فلا حاجة بنا[3] إلى تفصيلها. فهؤلاء محجوبون بجملة من الأنوار مع ظلمة المقايسات العقلية. فهؤلاء كلهم أصناف القسم الثاني الذين حجبوا بنور مقرون بظلمة. وبالله التوفيق.

القسم الثالث

ثم المحجوبون بمحض الأنوار وهم أصناف ولا يمكن إحصاؤهم: فأشير إلى ثلاثة أصناف منهم:

الصنف الأول: طائفة عرفوا معاني الصفات تحقيقاً وأدركوا أن إطلاق اسم الكلام والإرادة والقدرة والعلم وغيرها على صفاته ليس مثل إطلاقه على البشر؛ فتحاشوا عن تعريفه بهذه الصفات وعرفوه بالإضافة(٤٧/)إلى المخلوقات كما عرّف موسى عليه السلام في جواب قول فرعون: ﴿**وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾[٢] لكن[4] قالوا إن الرب المقدّس المنزّه عن معاني هذه الصفات هو محرّك السموات ومدبرها.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) سورة الشعراء، الآية: ٢٣ وما بعدها.

(1) في المطبوعة: باللفظ.

(2) في المطبوعة: تعالى.

(3) في المطبوعة ساقطة.

(4) في المطبوعة ساقطة.

والصنف الثاني: ترقوا عن هؤلاء من حيث ظهر لهم أن في السمٰوات كثرة، وأن محرك كلّ سماء خاصة موجود آخر يسمى مَلَكاً، وفيهم كثرة، وإنما نسبتهم إلى الأنوار الإلٰهية نسبة الكواكب. ثم لاح لهم أن هذه السموات في ضمن فلك آخر يتحرك الجميع بحركته في اليوم والليلة مرة. فقالوا[1]: الرب هو المحرك للجرم الأقصى المنطوي على الأفلاك كلها (و٢١ ـ ب) إذ الكثرة منفية عنه.

والصنف الثالث: ترقوا عن هؤلاء وقالوا: إن تحريك الأجسام بطريق المباشرة ينبغي أن يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له وطاعة من عبد من عباده يسمى مَلَكا: نسبته إلى الأنوار الإلٰهية المحضة نسبة القمر في الأنوار المحسوسة. فزعموا أن الرب هو المطاع من جهة هذا المحرّك؛ ويكون الرب تعالى محركاً للكل بطريق الأمر لا بطريق المباشرة. ثم في تفهيم[2] ذلك الأمر وماهيته غموض يقصر عنه أكثر الأفهام ولا يحتمله هذا الكتاب.

فهؤلاء الأصناف كلهم محجوبون بالأنوار المحضة. وإنما الواصلون صنف رابع تجلَّى لهم أيضاً أن هذا «المطاع» موصوف بصفة تنافي الوحدانية المحضة، والكمال البالغ ليس[3] يحتمل هذا الكتاب كشفه: وأن نسبة هذا «المطاع» نسبة الشمس إلى[4] الأنوار. فتوجهوا من الذي يحرك السموات ومن الذي يحرك الجرم الأقصى، ومن الذي أمر بتحريكها إلى الذي فطر السمٰوات(٤٨/) وفطر الجرم الأقصى، وفطر الأمر بتحريكها، فوصلوا الى موجود منزه عن كل ما أدركه بصرٌ من قبلهم، فأحرقت سبحات وجهه الأول الأعلى جميع ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم إذ وَجَدوه مقدساً منزهاً عن جميع ما وصفناه من قبل.

---

(1) م: ساقطة.
(2) م: تقسيم.
(3) م: لسر لا.
(4) م: في.

ثم هؤلاء انقسموا فمنهم من احترق منه جميع ما أدركه بصره، وانمحق(١) وتلاشى، لكن بقي هو ملاحظاً للجمال والقدس وملاحظاً ذاته في جماله الذي ناله بالوصول إلى الحضرة الإلهية. فانمحقت منهم[1] المبصرات دون المبصَر. وجاوز هؤلاء طائفة هم خواص الخواص فأحرقتهم سبحات وجهه وغشيهم سلطان الجلال فانمحقوا وتلاشوا في ذواتهم[2] ولم يبق لهم لحاظ إلى أنفسهم لفنائهم عن أنفسهم. ولم يبقَ إلا الواحد الحق. وصار معنى قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجهَهُ﴾(١) لهم ذوقاً وحالاً. وقد أشرنا إلى ذلك في الفصل الأول، وذكرنا أنهم كيف أطلقوا الاتحاد وكيف ظنوه. فهذه نهاية **الواصلين**.

ومنهم: من لم يتدرج في هذا[3] الترقي والعروج على التفصيل الذي ذكرناه ولم يطُلْ عليهم الطريق فسبقوا في أول وهلة إلى معرفة القدس وتنزيه الربوبية عن كل ما يجب تنزيهه عنه، فغلب عليهم أولاً ما غلب على الآخرين آخراً، وهجم عليهم التجلي دفعة فأحرقت سبحات وجهه جميع ما يمكن أن يدركه بصر حسي(٤٩/)وبصيرة عقلية. ويشبه أن يكون الأول: طريق «الخليل» إبراهيم عليه السلام[4] والثاني طريق الحبيب صلى الله عليه وسلم، والله أعلم بأسرار أقدامهما وأنوار مقامهما.

فهذه إشارة إلى أصناف المحجوبين، ولا يبعد [أن يبلغ] عددهم إذا فصّلت المقالات وتُتبع حجب السالكين سبعين ألفاً. ولكن إذا فتشت لا تجد واحداً منها خارجاً عن الأقسام التي حصرناها: فإنهم إنما يحجبون بصفاتهم البشرية، أو بالحس أو بالخيال أو بمقايسة العقل، أو بالنور المحض كما سبق.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(1) في المخطوطة: منهم.

(2) في المطبوعة: ذاتهم.

(3) في المطبوعة ساقطة.

(4) في المطبوعة ساقطة.

[خاتمة]

فهذا ما حضرني في جواب هـذه الأسئلة، مع أن السؤال صـادفني والفكر متقسم، والخاطـر متشعب، والهمُّ إلى غير هـذا الفن منصرف. ومقترحي عليه أن يسأل الله تعالى العفو عما طغى به القلم، أو زلَّت به القدم؛ فإن خوض غمرة الأسرار الإلَهية خطير، واستشفاف الأنوار الإلَهية من وراء الحجب البشرية عسير غير يسير، والسلام(1).

[آخر الكتاب]

آخر كتاب مشكاة الأنوار، والحمد لله حق حمده وصلواته على سيدنا محمد، وآله، وصحبه، وسلامه وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وافق الفراغ من نسخه محمد بن عيسى بن محمد بن عبيق الأموي ليلة السبت التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.

وقد ضبطه على المخطوطتين المذكورتين أعلاه الشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان ووافق الانتهاء منه في ٢ تشرين الأول ١٩٨٣.

---

(1) في المطبوعة ساقطة إلى نهاية الكتاب من المطبوعة.

الفهارس العامة

فهرس الآيات الكريمة

حسب ترتيب السور والآيات في القرآن الكريم

فهرس الأحاديث الشريفة

فهرس الآثار والأقوال

غير النبوية

فهرس الأشعار

١٤١ : ١

رقَّ الزجاجُ وَرَاقتِ الخَمْرُ
فَتَشابها وَتَشاكَلَ الأَمْرُ

«أبو نواس»

١١٨ : ٣

فَمَنْ منحَ الجهَّالَ عِلْماً أضاعَهُ
وَمَنْ مَنَحَ منع المستوجبين فَقَد ظَلَم

«. . . .»

١٤٠ : ٥

أَنا مَنْ أهوى وَمَنْ أهوى أنا
نحن روحان حللنا بدنا

«الحلاج»

فهرس الكتب المذكورة في النص

اسم الكتاب	الصفحة	السطر
إحياء علوم الدين	١٢٦	٣
عجائب القلب (من الإحياء)	١٢٦	٣
القسطاس المستقيم	١٧٠	١
محك النظر	١٢٧	١٣
معيار العلم	١٢٧	١٣
المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى	١٣٩	١

فهرس الطوائف والأقوام

فهرس المراجع والمصادر

- القرآن الكريم.
- الصحاح والسنن.

ابن الأثير:
- النهاية في غريب الحديث، طبع بيروت دار الفكر ١٩٧٩.

الأشعري أبو الحسن:
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، طبع فرانز شتايز بفسبادن ١٩٨٠.

الأصبهاني:
- حلية الأولياء، طبع بيروت، دار الكتاب العربي مصورة.

الألباني:
- صحيح الجامع الصغير - طبع المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٧٩.

بدوي عبد الرحمٰن:
- مؤلفات الغزالي، القاهرة ١٩٦١.

بروكلمان كارل:
- تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة فارس وبعلبكي، طبع بيروت ١٩٦٢.

البيهقي، الشافعي، أحمد بن الحسين ت: ٤٥٨ هـ:
- الإعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد.

ابن تيمية:
- تفسير سورة النور، تحقيق صلاح عزام، طبعة الشعب.
الجرجاني، شريف:
- التعريفات، طبع بيروت، مكتبة لبنان ١٩٧٨.
ابن الجوزي:
- أخبار الحمقى والمغفلين تحقيق: علي الخاقاني طبع بغداد ١٩٦٦.
- تلبيس إبليس. طبع بيروت مصورة.
- صفة الصفوة. مصورة طبع بيروت.
حاجي خليفة:
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون مصورة طبع بيروت.
الحلاج، الحسين بن منصور:
- الديوان، تحقيق ماسينيون طبع باريس ١٩٥٥.
- الطوسين، تحقيق ماسينيون باريس ١٩١٣.
الخطيب البغدادي:
- تاريخ بغداد، طبع بيروت، مصورة.
الخوانساري، محمد باقر:
- روضات الجنات مصورة في بيروت.
الدافي، أبو عمرو:
- المكتفي في الوقف والابتداء، طبع بيروت، مؤسسة الرسالة بتحقيق الدكتور مرعشلي.
الزركلي، خير الدين:
- الأعلام، طبع بيروت دار العلم للملايين ١٩٨١.
ابن سبعين:
- الرسالة الفقيرية، ضمن مجموعة الرسائل: تحقيق الدكتور عبد الرحمٰن بدوي، طبع الدار المصرية ١٩٦٥.

السهروردي، شهاب الدين (ت: ٥٨٧ هـ):
- مجموعة الحكمة الإلهية. طبع جمعية المستشرقين بتصميم هـ. كوربان. استانبول ١٩٤٥.
- هياكل النور، طبع القاهرة ١٩٥٧.

السيروان، عبد العزيز عز الدين:
- معجم طبقات الحفاظ والمفسرين.
- أحاديث سيد المرسلين عن حوادث القرن العشرين.

ابن سينا:
- رسائل ابن سينا، طبع ليدن ١٨٨٩.
- منطق المشرقيين، المكتبة السلفية ١٩١٠.

السيوطي:
- الفتح الكبير طبع بيروت مصورة بلا تاريخ.
- الفتح الكبير دار الكتب العلمية مصورة بلا تاريخ.
- كنز العمال طبعة على هامش مسند الإمام أحمد مصورة. طبع دار الفكر.

الشهرستاني، أبو الفتح:
- الملل والنحل، مصورة في بيروت.

الصالح، أديب:
- على الطريق، طبع دار الفتح دمشق.

الصاوي:
- حاشية على تفسير الجلالين، طبع بيروت مصورة.

ابن عربي، محيي الدين:
- الفتوحات المكية طبع القاهرة.
- نصوص الحكم، طبع القاهرة.

الغزالي:
- إحياء علوم الدين، طبع مصر ١٩٥٨.
- الجام العوام عن علم الكلام، طبع مصر ١٩٣٢.
- بداية الهداية، طبع بيروت مصورة.
- فضائح الباطنية، تحقيق بدوي ليدن ١٩١٦.
- معارج القدس، طبع القاهرة ١٩٠٩ م.
- المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، طبع القاهرة ١٩٠٧.
- المنقذ من الضلال، تحقيق صليبا، طبع بيروت دار الأندلس ١٩٨٣.
- ميزان العمل، طبع بيروت مصورة.

الفخر الرازي:
- التفسير الكبير، طبع بيروت ١٩٨١، دار الفكر.

ابن أبي الفضائل:
- كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة، تحقيق محمد زاهر الكوثري. طبع القاهرة ١٩٥٥.

ابن قتيبة الدينوري:
- تأويل مشكل القرآن.
- غريب القرآن، طبع بيروت مصورة.

القفطي، جمال الدين:
- أخبار العلماء بأخبار الحكماء، القاهرة ١٩٠٨ م.

الكاشي:
- اصطلاحات صوفية، طبع مصر الهيئة العامة.

ابن كثير:
- تفسير القرآن العظيم، طبع بيروت، مصورة.

مجمع اللغة العربية في مصر:
- المعجم الفلسفي، طبع القاهرة ١٩٧٩.

مدكور، إبراهيم:
- شهاب الدين السهروردي، طبع الهيئة المصرية ١٩٧٤.
مرعشلي، أسامة ونديم:
- الصحاح، طبع بيروت الحضارة العربية ١٩٧٥.
مسلم:
- صحيح مسلم، طبع بيروت، مصورة.
مسكوية:
- تهذيب الأخلاق طبع القاهرة ١٩٠٩ م.
مكي، أبو طالب:
- العمدة في غريب القرآن، تحقيق الدكتور مرعشلي ١٩٨١، مؤسسة الرسالة.
- قوت القلوب، طبع القاهرة ١٩٣٣.
ياقوت الحموي:
- معجم البلدان، مصورة في بيروت.

فهرس اصطلاحات الغزالي

(حرف الباء)

(حرف التاء)

(حرف الثاء)

(حرف الجيم)

(حرف الخاء)

(حرف الزاي)

(حرف السين)

(حرف الشين)

(حرف الصاد)

(حرف الضاد)

(حرف الطاء)

(حرف الظاء)

(حرف الغين)

(حرف الفاء)

(حرف القاف)

(حرف الكاف)

(حرف اللام)

(حرف الميم)

(حرف النون)

(حرف الهاء)

(حرف الواو)

(حرف الياء)

فهرس الموضوعات

كتب للمحقق

الآثار الباقية عن القرون الخالية، للبيروني	تحقيق: عالم الكتب
إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، للخضري	تحقيق: دار الإيمان
أحاديث سيد المرسلين عن حوادث القرن العشرين،	تأليف: دار الآفاق
الأربعون حديثاً (مشيخة ابن تيمية)، لابن تيمية	تحقيق
يا تنجل (في التقمص والتناسخ والحلول) للبيروني	تحقيق
البيتان في آداب حملة القرآن، للنووي	تحقيق: دار النفائس
شرح الأربعين النووية، للنووي	تحقيق
شرح ابن دقيق العيد على الأربعين، النووية	تحقيق: دار الرائد العربي
شرح منتهى الإرادات، للبهوتي	تحقيق
الضعفاء الصغير، للبخاري	مراجعة وفهرسة عالم الكتب
الفهرست، للبيروني	تحقيق
فهرست مؤلفات البيروني	تأليف
الكلم الطيب لابن تيمية	تحقيق: دار الرائد العربي
متن الأربعين النووية، للنووي	تحقيق: دار الرائد العربي
المجموع في الضعفاء والمتروكين (الدارقطني - النسائي - البخاري) تحقيق	
المراسيل، لأبي داود السجستاني	تحقيق وإضافة أسانيد
المعجم الجامع لغريب القرآن (البخاري - ابن قتيبة - الأشبلي - أبو طالب) جمع وتحقيق:	
معجم طبقات الحفاظ والمفسرين	تأليف عالم الكتب
نور اليقين في سيرة سيد المرسلين الخضري	تحقيق: دار القلم
الوابل الصيب، لابن قيم	تحقيق دار الرائد العربي